

الحدث ووسائل الإعلام

خالد طحطح

كتاب المجلة العربية
260

الحدث ووسائل الإعلام

تأليف وإعداد
خالد طحطح

كتاب المجلة العربية
260

المجلة العربية

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي
هاتف: 4777943. 4767345 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ المجلة العربية، 1439هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
طحطح، خالد
الحدث ووسائل الإعلام. / خالد طحطح.- الرياض، 1439هـ
118ص؛ 21×14سم.- (كتاب المجلة العربية؛ 260)
ردمك: 978-603-8204-59-7
1 - الإعلام 2 - وسائل الإعلام أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 301.16 1439 / 6086

رقم الإيداع: 1439 / 6086
ردمك: 978-603-8204-59-7

المحتويات

مقدمة

نحـن اليوم، أمام استعمالات متعددة للحدث؛ مختلفة -بشكل جذري- عمَّا كان يُقَدَّمُ في السّابق؛ إذ تُمنح قراءات متعددة ودقيقة لتفاصيله، بشكل آنيّ أثنـاء وقوعه. ويتم ذلك في قاعات، مُعَدَّة سلفـاً، ومُجهّزة بأحدث التّقنيات السّمعيـة البصريّـة، وباستضافـة أشخاص مـن تخصُّصـات ومرجعيّات مختلفة.

نشهـدُ حاليـاً، خصوبة توليد الأحـداث في زمن الإعلام المتنـوع. إننا أمام ولادة رؤية جديدة؛ فهناك تحوُّل بارز على مستوى مقاربة الحدث، بالانتقال من أسبابه إلى أثره. وهذا التّجديد الكبير في النّظرة والتّصوُّر، يُغيِّر جذرياً علاقاتنا بالحدث، وذلك من خلال إعادة إحيائه مرة أخرى. نحن لا نتحدَّث هنـا، عن عودة بسيطة للحـدث بمعناه القديم، بعد الكسـوف الطويل الذي شهده في مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ فالعودة مُثيرة ومُحتفى بها، وهي ليست عودة غامضة إلى مواضيع قديمة، كما عَبَّرَ المُؤرخ الفرنسي جاك لوغوف، ولا علاقة لها بمفاهيم وأفكار النظرة التقليدية للمدرسة التاريخية الوضعانية للقرن التاسـع عشر، وليست عودة للحدث المُعَطَّر في كفن قديم، بـل إن الحـدث المعاصر تدشين لمرحلة جديدة في الخطـاب التاريخي، يمثل قطيعـة مـع الماضي؛ فالأمر ليس مجرد تقليـد أو استنساخ أو اقتفاء لأثر ما اندثر في السابق.

إن نهضـة الكتابـة التاريخية لن تبدأ إلا مع الاعـتراف بالحدث والإعراض عـن التوجّهـات الشمولية، فعبر معالجة الواقع مـن خلال مجالات مصغرة ملموسة على غرار الحادثة والرواية وتفاصيل الحياة، يمكننا الاقتراب أكثر مـن التاريخ اليومي كما عاشه عامة النـاس. إن إعادة الاعتبار للحدث لبنة

أساس في بناء صرح التاريخ من جديد، فلكي يعود التاريخ (علم التغيير) لابد أن يقطع مع الخطاب التاريخي الجامد لمدرسة الحوليات، التي بنت تفوقها على محو الحدث وإقصائه.

إن الحدث المهم حالياً، يظهر باعتباره بداية لمرحلة جديدة مختلفة. ولعل الواقعة التي تجعله يبزغ اليوم، هي تلك التي تُحرِّرُ في لحظة واحدة وفُجائية شهاباً من المُمكنات كانت إلى حد قريب غير مرتقبة؛ فهجوم الحادي عشر من شتنبر لم يَكُن متوقعاً، وخُروج الشّباب في الربيع العربي، للاحتجاج على الأنظمة شَكَّلَ مفاجأة حقيقية للجميع.

إن حدثاً مثل هجمات الحادي عشر من شتنبر، كانت له مضاعفات ممتدّة، وبعض الأحداث الأخرى السابقة، كسقوط حائط برلين، حملت تغييرات كبرى لمجتمعات وأنظمة بأسرها في أوروبا الشرقية وروسيا. والشيء نفسه ينطبق حالياً، على الثورات العربية في تونس وليبيا ومصر واليمن. فهذه الأحداث الكبرى، شكلت موضوعات آنية وفورية لوسائل الإعلام، وغدت موضوعات لتناولات متعددة، وأحياناً متناقضة؛ إذ تُقَدَّمُ بشأنها قراءات مختلفة.

إن (الأحداث العظمى) أصبحت توجه تاريخنا الحاضر. وهي بذلك، تطرح نفسها بقوّة على نقاشات المؤرخين. وقد ساهم تزاحم وسائل الإعلام الكبرى، على نقل الأحداث التي تشغل الرأي العام، في هذه العودة. إنه اكتساح كبير للحَدثِ المُثَمَّن، وهو ما أفرز ردة فعل أمام دكتاتورية ما هو وقائعي.

لقد انتقلنا اليوم، في زمن هيمنة وسائل الإعلام في مقاربة الحدث، من الأسباب إلى التركيز على النتائج، التي يخلّفها؛ أي أنّ المقاربة تحوّلت من

قمّة الحدث إلى قاعدته، بالانتقال من البحث في أسبابه إلى النظر في آثاره. وتبدو تجلّيات هذا التغيير بالأساس، في كيفية تعامل المفكرين والمؤرخين والإعلاميين، مع تحليل الأحداث الكبرى، كحدث أيار/ ماي 1968، وحدث سقوط جدار برلين، وحدث انهيار الاتحاد السوفييتي سنة 1991م، وشهدناها، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، مع حدث 11 أيلول/ شتنبر 2001، ومع الثورات التي عرفتها المَنطقة العربية، فيما اصطُلِحَ عليه بـ(الربيع العربي). فحسب الفيلسوف ميشال دو سيرتو (ليس الحدث ما يمكن رؤيته، أو معرفته، ولكن ما يصير إليه)، ويرى المؤرخ الفرنسي جاك روفيل، في السِّياق نفسه، أنّ الحدث يؤدّي، في الوقت نفسه، دور الذاكرة والخرافة في المتخيّل الجماعي، مما يسمح باستقراء هذا المتخيّل الاجتماعي ذاته.

الفصل الأول

الحدث وتاريخ الزمن الراهن

1 - سطوع تاريخ الزمن الراهن

لقد اقتصر مجال التاريخ في السابق، على الماضي فقط؛ فالتاريخ لم يكن يولد، بالنسبة لعصر ما، إلا عندما يموت نهائياً. أما في الفترة الحالية، وبفضل قوة وسائل الإعلام، فقد أصبح الآني المعاش يُفرض باعتباره تاريخاً حاضراً لا يكف عن الاحتراق في الراهنية، كما عبر المؤرخ فرانسوا هارتوغ François Hartog. لم يعد الإعلام يخبرنا اليوم، عن الواقع، بل أصبح يصهرنا فيه، أصبح يحشرنا في الراهن ويغرقنا فيه، يخبرنا إلى حد التخمة؛ فعوض جعلنا ندرك الأحداث في بعدها التاريخي، ودلالتها العميقة، صرنا نضيع في جزئياتها، بل أضحت الأحداث ضائعة ومفتتة في سلسلة من العجالات (الأخبار العاجلة)[1]؛ إذ يمر الحدث المعاصر أمامنا بشكل فوري ومباشر، حتى قبل اكتمال تَشَكُّلِ صورته، وهو يفرض علينا بسطوته، مزيداً من المعاش، لدرجة يأخذ فيها الحاضر مكان الماضي؛ فالأحداث تواجهنا بقوة أينما حللنا أو اتجهنا، فعبر وسائل الإعلام المختلفة، وعن طريقها، يواجهنا الحدث، نتابع ونشاهد -يومياً- نماذج من الأخبار والوقائع، وهي تُنَقَلُ على الهواء مباشرة، لدرجة تمكننا من الجزم بكون المواطن أصبح يعيش تحت وقع ضغط الأحداث المباغتة. إنه زمن متابعة الحدث، في فترة هيمنة عصر الصورة، الى أبعد الحدود؛ فبفضل آلات التصوير المتطورة، وفي ظل التنافس الرهيب بين القنوات التلفزيونية، وعبر فضاءات الإنترنت المتنوعة، والمواقع الاجتماعية والحوارية، شاهدنا أحداثاً مفاجئة ومباغتة. عرضت علينا الفضائيات صوراً متعددة ستظل محفورة في الذاكرة، ولن تُنسى أبداً، منها: صور لاحتراق أحد أكبر الأبراج الشاهقة في العالم بمدينة

(1) عبدالسلام بنعبد العالي (تكريساً للانفصال). ضمن. ضد الراهن، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2005م ص7.

نيويــورك، بعدها بقليل شاهدنا بشكل مباشر الطائرة الثانية وهي تصطدم بالبرج الثاني لمبنى مركز التجارة العالمي، أمام دهشة وذهول الجميع. هذا الذهــول تكرر أيضاً بفضل دور عدسات الكاميرا في أحداث الثورات العربية التي لم يكن يحلم بها، أو يتصورها أحد.

لقد شهد العالم، مع الطفرة الإعلامية والتقدم الهائل في وسائل الاتصال، تحــولات مهمة تمخض عنها تحــول في مفهوم الحدث، ونتــج عنها تطور في طبيعــة عمل المؤرخ نفسه، وأدت إلى تحول في المفهــوم التقليدي لمهنة المؤرخ لصالــح المفهوم المعاصر للتاريخ. فالمؤرخ مُطالــب، اليوم، أكثر من أي وقت مضــى بكتابة تاريخ الزمن الحاضــر، بِحكم تسارع وتــيرة الأحداث، وتنوّع مصــادر الخبر، وبسبــب اهتمام المجتمعــات المعاصرة بالراهــن؛[1] فمؤرخ اليــوم، هو من يستثمر تجربتــه ومشاركته في الحــوادث والوقائع التي يؤرخ لهــا وهي تقع، وهو بهذه السمة، يشترك مــع بعض كبار المؤرخين السابقين. ألم يكــن هــيرودوت وتيوسيديد وابــن خلدون -في زمنهــم- مؤرخين للزمن الحاضر، مــن خلال اهتمامهم بأحداث ووقائــع عصرهم؟ إن صعود نجم تاريــخ الزمــن الحاضر في زمــن الثورة الرقميــة والمعلوماتيــة، وفي مجتمع يُكَرِّسُ أغلب وقتــه للإعلام، هو أحــد التغيرات المهمة التــي تُلقي بظلالها اليــوم، على مشهد الكتابة التاريخية في العــالم ككل؛ فحين يتحوّل الحاضر إلــى الشغل الشاغل للأفراد، وجب علــى العلوم الإنسانية ومن بينها التاريخ أن تُدرجه ضمن أولوياتها.

(1) صــدر للمــؤرخ التونســي فتحي ليسير كتــاب بعنوان: تاريــخ الزمن الراهــن: عندما يطــرق المؤرخ باب الحاضــر، عــن دار محمد علي للنشر، صفاقــس، تونس، الطبعة الأولى، سنــة 2012، في 176 صفحة. تنــاول الباحــث موضوعه في ثلاثــة أبواب، وهي: كلام جديــد في قطاع أسطوغرافي قــديم، وإشكاليات تاريخ الزّمن الرّاهن، وخصوصيات ومصادر تاريخ الزّمن الراهن، وقد صدر الكتاب في سياق الثورات العربية التي انطلقت شرارتها من تونس.

لقد بدأ التاريخ السياسي الحدثي يشهد انتعاشة، منذ نهاية السبعينات، بتجدده من الداخل. ومن مظاهر هذه الانتعاشة الكبرى، اكتساح التاريخ السياسي مجالات جديدة؛ إذ لم يعد مقتصراً على الظواهر الدبلوماسية والعسكرية، وإنما امتد ليشمل أحداث الساعة، في إطار ما يعرف بتاريخ الزمن الحاضر؛ إذ لم يعد الحاضر من مجالات وسائل الإعلام فقط، بل احتواه أيضاً التاريخ الآني، وأصبح فرعاً من فروع التاريخ، واعْتُرِفَ به مجالاً من مجالات اهتمام المؤرخ اليوم، رغم حداثة ظهوره.

لقد تعددت مؤسسات تاريخ الزمن الحاضر، فقد أنشأت معاهد كثيرة في العديد من الدول، التي اهتمت بالأبحاث والدراسات المتعلقة بالفترة الراهنة، وقد ساهم هذا الازدهار، في إقحام الحاضر في مجال التاريخ، من خلال دراسة آخر الأحداث الكبرى، ونذكر على سبيل المثال: المعهد الذي تأسس بمدينة ميونيخ الألمانية، سنة 1952، والمعروف باسم معهد التاريخ المعاصر institut für Zeitgeschichte، والذي اختص في البداية في دراسة الثورات، قبل أن ينتقل إلى الاهتمام بكتابة تاريخ النازية، وتاريخ الحرب العالمية الثانية. ونذكر أيضاً المعهد الوطني لتاريخ حركة التحرير istituto nazionale per la storia del movimento di libérazione، الذي ظهر بمدينة ميلانو الإيطالية سنة 1949؛ غير أنه لم يعترف به بشكل قانوني إلا في سنة 1967. وفي بعض الدول الأخرى مثل إسبانيا والأرجنتين، أنشأت مؤسسات بهدف دراسة تاريخ الزمن القريب وذاكرته، وبالخصوص الأحداث المكسرة، وفي الغالب تم التركيز على (آخر كارثة في الزمن). وبغض النظر عن الاختلافات المفاهيمية بين هذه المؤسسات والمعاهد، فإن الشيء المثير للانتباه بدون شك، عودة الاهتمام بهذا النوع من التاريخ،

الذي عادت له المشروعية، وأصبح معترفاً به في الجامعات.[1]

لقد تكرس استخدام مصطلح (الزمن الحاضر) في أواخر السبعينات، خصوصاً في فرنسا[2]؛ فقد قررت الجهات الرسمية بها، أن تمنح -أخيراً- مكاناً مؤسساتياً للبحث في التاريخ الآني، وذلك بتأسيسها سنة 1978، معهد تاريخ الزمن الحاضر IHTP ، الذي نشأ في أحضان مختبر البحث CNRS،[3] بمساهمة من المؤرخ بيار نورا، غير أنه لم يُدَشَّن بشكل فعلي إلا في العام 1980، من قِبَلِ فرانسوا بيداريدا، الذي ترأس مجلس إدارته إلى غاية سنة 1990. وقد تعاقب من بعده على رئاسة المعهد بالتتابع: روبرت فرانك، وهنري روسو، وفابريس دالمبيدا. واليوم، يُسَيِّرُ المعهد ومنذ 2004، من طرف كريستيان إنغارو، وقد أخذ كموضوع الحرب العالمية الثانية، وتابع الدراسات حول مرحلة الحرب، وتوجه كذلك إلى تحليل الأحداث الأكثر معاصرة، مثل مرحلة تصفية الاستعمار، والمقاومة[4]، وقد تم الاهتمام بنشر الأبحاث التي ينجزها المعهد، من طرف أشهر دور النشر، وذلك للإقبال الكبير الذي تحظى به هذه الفترة من التاريخ لدى القراء. لقد أُوكِلَ إلى هذا المعهد تأريخ حوادث الأمس القريب المتصل بالحاضر، ويجب التمييز هنا، بين التاريخ الحاضر والتاريخ المعاصر؛ فإذا كان ابتداء التاريخ الحديث

(1) Patrick Garcia، Histoire du temps présent. Parmi، Historiographies I، Concepts et débats. Folio histoire. Editions. Gallimard، 2010.p 292، 293.

(2) فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، تونس، المركز الجامعي، 2000، ص150، 151. لقد خصص على سبيل المثال، الكاتب الصحفي والمؤرخ الإنجليزي، تيموثي جارتن، حيزاً كبيراً للثورات التي اجتاحت بلدان أوروبا الشرقية بعد انهيار جدار برلين، في كتابه: (تاريخ الزمن الحاضر)، وهو يُعتبر من الأوائل الذين استخدموا عبارة (التاريخ الآني).

(3) **تأسس المركز** الوطني للبحث العلمي Centre national de la recherche scientifique سنة 1939، تابع لوزارة البحث الفرنسية، ويضم حالياً **عشرة معاهد، وأكثر من عشرين مختبراً**، وهو يعد بذلك أكبر مركز أبحاث في أوروبا.

(4) Jean-François Soulet. L'histoire immédiate ; historiographie، sources et méthodes، Armand Colin، coll. (U. Histoire)، 2009.p33، 34.

والمعاصر، في برامج التدريس الفرنسية، يتحدد من تاريخ الثورة الفرنسية سنة 1789، فإن برنامج دراسة الزمن الحاضر، يتناول وقائع وحوادث الأمس القريب، والتي مازالت تخيم آثارها على حاضرنا إلى اليوم.[1]

إن معهد تاريخ الزمن الحاضر IHTP وَريثُ لجنة تاريخ الحرب العالمية الثانية التي أنشئت في عام 1951، والتي انبثقت بدورها عن لجنة البحث في تاريخ الاحتلال النازي وتحرير فرنسا. وكان قد عُهِدَ إليها، سنة 1944، من طرف الحكومة المؤقتة برئاسة الجنرال دوغول، القيام بالتأريخ لفترة حكومة فيشي والمقاومة في فرنسا المحتلة.[2]

وفي عام 1978، تم دمج لجنة تاريخ الحرب العالمية الثانية ضمن معهد تاريخ الزمن الحاضر، الذي أضحى تابعاً للمركز الوطني للبحث العلمي CNRS، الذي ورث مكتبته ومحفوظاته. ورغم سن قانون عام 1979 الذي يحد من الوصول إلى السجلات المتعلقة بأحداث الراهن، فإن جهود المعهد بما توفر لديه -في مكتبته- من مستندات ووثائق ومحفوظات، عن حقبة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، ساهم في إغناء تاريخ الزمن الراهن.

يشتغل المعهد بفرق بحثية متعددة؛ فهو يضم باحثين بالمركز الوطنيCNRS ، بالإضافة إلى أساتذة باحثين متعاونين ينتمون إلى عدد من الجامعات الفرنسية، ويستقبل طلبة دكتوراه، وباحثين من دول أجنبية، ويعمل على

(1) هنري روسو. (التاريخ المعاصر يقترب من الماضي القريب وأصدائه في الحاضر الحار)، ترجمة منال نحاس، جريدة الحياة، ليوم 13 فبراير 2013.

(2) يعتبر هذا المعهد جزءاً من عدة هيئات أوروبية أخرى ظهرت إلى الوجود في أعقاب الحرب الثانية، والشيء الذي يجمع بين جميع هذه المؤسسات والمعاهد، المكانة الرئيسة التي يأخذها مفهوم الذاكرة، سواء تعلق الأمر بمخلفات عنف الحروب، مثل الحربين العالميتين، أو حرب الجزائر، أو استعمالات سياسية واجتماعية للماضي؛ فممارسته مرتبطة بالحاضر المعاش، وباجتياح الذاكرة، لوجود الشهود من الأحياء. الشيء الذي يحدد حجم المسؤولية التي يتحملها المؤرخ، ونوع التحديات التي يمكن أن يطرحها عليه تاريخ الزمن الحاضر.

موضوعـات مختلفـة، أهمها: تاريـخ الحرب في القرن العشريـن، والأنظمة الاستبداديـة، والشموليـة، والكولونيالية، بالإضافة إلـى الاهتمام بالتاريخ الثقافي للمجتمعـات الحديثة. ويهدف المعهد إلى إحيـاء التاريخ الجماعي، مـن خـلال الاهتمـام بذاكـرة الشعوب بعـد سنـة 1945، بتنـاول مختلف الأحـداث الكبرى التي ميزت القرن الماضي، سواء داخل أوروبا أو خارجها. وقد ساهم هذا المعهد -الذي أصبحت له الشرعية الكاملة في مجال البحث الأكاديمـي- مساهمة فعالـة في التأريخ للفـترة المعاصـرة، إذ ألفت، تحت إشرافـه وبمجهوداته، العديد مـن الأبحاث عن تاريخ الحربـين العالميتين، وعن حقبة الاستعمار ومـا بعدها، وعن تاريخ النظم السياسية الاستبدادية (الفاشية والنازية، والشيوعية).

وبالإضافة إلى معهد تاريخ الزمن الراهن، تهتم مؤسسات فرنسية أكاديمية أخـرى بالحقبة المعاصـرة؛ فالمؤرخ الجامعي جان فرانسـوا سرينيلي Jean François Sirinelli ، المتخصـص في التاريـخ السياسي والثقافي لفرنسا في القـرن العشرين، أسَّسَ في تولوز (مجموعة تاريخ الزمن الحاضر (GHTP) سنـة 1989)[1]، ويرأس -حالياً- مركز تاريخ العلـوم السياسية، وهو عضو بارز في معهد باريس للدراسـات السياسية، ورئيس اللجنة الفرنسية للعلوم التاريخية. ويشتغل -بمعيته- أساتذة متخصصون في التاريخ المعاصر. وهو يُمَثِّلُ، بكتاباته تَوجُّهاً جَديداً في الإسطوغرافيا الجديدة؛ فقد ساهم -بشكل أو بآخـر- في إحيـاء أبحاث التاريـخ السياسي؛ حيث ساعـدت أعماله على

---

(1) Pierre Vermern. Histoirerécente، histoire immidiate، l’histographie francaise et le cas du Maghreb. Parmi Tempe present et fonctions de L’historien édité par: Mohammed Kenbib، université Mohamed V agdal. Publications de la Faculté des Science Humaines-Rabat، série: Colloques et séminaires N158.2009. p120.

تطوير وتوسيع مجالات البحث التاريخي في الفترة الحالية.

ونضيف أيضاً الدور الذي قام به مركز تاريخ الحركة النقابية الذي أسسه بفرنسا سنة 1966 جان ميتران بتشجيع من أرنست لابروس، وقد أضحى هذا المركز ميداناً للبحث في تاريخ الحركات الاجتماعية، والنقابية، ثم ووّل إلى مركز التاريخ الاجتماعي للقرن العشرين Centre d'histoire sociale du XXe siècle، وقد دخل تجربة الشراكة مع المركز الوطني للبحث العلمي السابق الذكر، يشتغل على عدد من المواضيع المرتبطة بالتحولات الاجتماعية للفترة المعاصرة والراهنة.

وقد عرف المغرب بدوره، وإن بشكل متأخر، اهتماماً بالتاريخ الراهن؛[1] فقد وَقَّعَ المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، مع جامعة محمد الخامس بالرباط يوم 25 يناير 2010، اتفاقية تعاون تهم إحداث مسلك ماستر (التاريخ الراهن)، وقد التزم المجلس بتوفير الدعم اللازم لهذا التكوين، الذي يندرج في سياق تفعيل توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة المتعلقة بحفظ الذاكرة والتاريخ والأرشيف[2]. وبالفعل، فُتح في وجه الطلبة، لأول مرة، ماستر تاريخ الزَّمن الرَّاهن بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بداية من الموسم الجامعي 2010-2011. وقد توخى هذا المسلك تناول

(1) إن المتغيرات ذات الإيقاع السريع ساهمت -بشكل أو بآخر- في التأثير على وضعية البحث التاريخي في العالم العربي، وخصوصاً في فترة ما بعد الاستقلال؛ فقد برز جيل جديد من المؤرخين، في العديد من الدول العربية، تفاعلوا بشكل إيجابي مع تغيرات الكتابة التاريخية في أوروبا، وإن طغت على أغلبهم -بحكم وضعية العالم العربي- قضايا ترتبط بمراجعة ما خَلَّفَهُ الإرث الاستعماري في مجال البحث التاريخي؛ حيث أُعطيت الأولوية لمونوغرافيات التاريخ المحلي، ولإعادة كتابة التاريخ الوطني انطلاقاً من رؤية جديدة تختلف عن نظرة المؤرخين الكولونياليين، واليوم يتجه الاهتمام إلى تاريخ الزمن الحاضر، بالرغم من العوائق التي تواجهه.

(2) هَمَّتْ توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة، بالإضافة إلى تأسيس مسلك تاريخ الزمن الراهن، حِفْظَ أرشيفات الهيئة نفسها، وتيسير الولوج إليها بالنسبة للباحثين، كما تعهدت بالمساعدة على تنظيم وتحديث الأرشيف الوطني.

الباحثين للقضايا الراهنة دولياً ووطنياً، مَعَ التَّركيز على خصوصيات المرحلة الاستعمارية في المغرب، وذاكرة مغرب ما بعد الاستقلال، وقضايا بناء الدولة الوطنية.[1]

طرحت هيئة الإنصاف والمصالحة التي تأسست في 6 نونبر 2003 موضوع المصالحة مع التاريخ، ودعت إلى إزالة العراقيل التي تحول دون البحث في هذا التاريخ، وأكدت على أهمية ترسيخ التواصل بين الأجيال بما يحفظ الذاكرة. وفي هذا الصدد دَعَت الهيئة إلى مراجعة شاملة لحالة الأرشيف العمومي، ونَصَّت على ضرورة تنظيمه في إطار قانوني واضح، وتهييء الشُّروط الضَّرُورية لإصلاح وضعيته.[2]

لقد ساهمت هيئة الإنصاف -بدورها- من خلال اشتغالها على الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1956 إلى نهاية 1999 في إنتاج الأرشيف كمادة هامة بالنسبة لكتابة تاريخ المغرب فيما يتعلق بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، وذلك بعد عقود من سيادة الذاكرة الرسمية التي أقصت الذاكرات الأخرى؛ فقد شاركت الهيئة في إعادة صياغة ذاكرة وطنية تعددية غير انتقائية أو مبنية على الإقصاء، وذلك من خلال جلسات الاستماع التي

(1) يطرح الاهتمام بهذه المرحلة مشاكل متعددة بالنسبة للطلبة، فمن أهم العوائق هناك أولاً: غياب مؤسسة الأرشيف الوطني. ثانياً: وجود أغلب الوثائق المغربية لهذه الحقبة في الدول الأوروبية، وبالخصوص في فرنسا وإسبانيا. ثالثاً: مشكل رفع السرية عن بعض الوثائق المتعلقة بقضايا إشكالية تؤثر في الراهن؛ فموضوع الغازات السامة المستعملة في حرب الريف مثلاً تدخل ضمن هذا الإطار، ونفس الأمر بالنسبة للوثائق المتعلقة بالأحداث التي وقعت بين عامي 1936 و1968 بمنطقة سيدي إفني؛ فقد ذكرت جريدة الباييس الإسبانية ليوم 12 ماي 2014، أن وزارة الدفاع الإسبانية رفضت مبادرة رفع السرية على 10.000 وثيقة تتضمن معلومات عن الحركة التحررية بمنطقة سيدي إفني -جنوب المغرب- في خمسينات القرن الماضي، بحجة أن رفع السرية عنها سيخلق توتراً في الساحة الدولية، ومن بين ما تتضمنه تلك الوثائق معلومات عن معسكرات الاعتقال، والخلايا العسكرية التي أنشأها نظام الجنرال فرانكو.

(2) راجع: موجز مضامين التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، المملكة المغربية، 2006، ص35.

نَظَّمتها، حيث تم اعتماد الشهادات الشفوية كأهم مصدر من المصادر المعتمدة إلى جانب الوثائق والسجلات الرسمية[1]، وخصوصاً في ظل غياب العديد من السجلات والوثائق التي من شأنها استجلاء حقيقة الانتهاكات وتوضيح العديد من نقاط الظل في التاريخ الوطني لما بعد الاستقلال.[2]

تندرج تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة المغربية في إطار ما هو متعارف عليه اليوم بلجان الحقيقة والمصالحة عبر العالم، والتي تَمَّ إحداثها في عدد من البلدان، بغرض تحقيق العدالة الانتقالية، وتسوية الآثار المترتبة عن الانتهاكات المرتكبة خلال الفترة المسماة (سنوات الجمر والرصاص). وقد مارست الهيئة المغربية مهاماً ترتبط بالتقييم، والبحث، والتحري، والاقتراح، فيما يتعلق بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان التي حصلت في الفترة المذكورة أعلاه، والتي اشتغلت عليها الهيئة، والمتمثلة في الاختفاء القسري، والاعتقال التعسفي، والتعذيب، والاعتداء الجنسي، والاغتراب الاضطراري، والحرمان من الحق في الحياة نتيجة الاستعمال المفرط للقوة العمومية.

وإلى جانب مُعالجة الهيئة للملفات الفردية، وإصدارها أحكاماً محددة فيما يتعلق بالتعويض المادي للضحايا، والإدماج الاجتماعي، والتغطية

(1) تُعتبر الشَّهادات الشَّفَوية التي تَمَّ تَسْجِيلها مُقدمة للعناية بالتاريخ الشفاهي بالمغرب، وقد قام المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان بدعم من صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة بجمع بعض الشهادات النسائية وإصدارها في كتاب عنوانه: نساء كسرن جدار الصمت عن معاناة كاد يطويها النسيان، كما تم إصدار كتاب ذاكرة الاعتقال السياسي، وهو عبارة عن حوارات مع معتقلين سياسيين سابقين، يتحدثون عن ظروف اعتقالهم، وعن ما قاسوه أثناء فترات الاعتقال والمحاكمة، التي امتدت خلال حقبتي الستينات والسبعينات، وهذه الحوارات تلقي الأضواء على جوانب كثيرة من تجارب الاعتقال السياسي بالمغرب، مما يُضفي على الكتاب صبغة التوثيق لجزء من التاريخ السياسي الراهن للمغرب.

(2) راجع بخصوص الانتقال الديموقراطي وكتابة التاريخ. هيئة الإنصاف والمصالحة-التقرير الختامي، الكتاب الرابع، مقومات توطيد الإصلاح والمصالحة، إنجاز لجنة وطنية للحقيقة والإنصاف والمصالحة، منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، المملكة المغربية، 2006، ص59، 60.

الصحيــة، تَمَّ اقــتراح مجموعة من التوصيات المتعلقــة ببرامج جبر الضرر الجماعــي[1]، والتي تولى المجلس الاستشاري لحقــوق الإنسان مهمة تتبعها، وقــد أعادت هذه التوصيات الأسئلة بخصوص التاريخ الراهن إلى الواجهة؛ فقد اقترحت الهيئة مجموعة من التدابير أهمها:

- الدعوة إلى حفــظ الأرشيفات الوطنية، وتنسيق تنظيمها، في أفق تأسيس معهد الأرشيف الموصى بإحداثه، ليكون مؤسسة وطنية تشرف على الأرشيف في إطار قانوني.

- الاهتمــام بالتوثيــق والبحــث والنشر حول الأحــداث التاريخيــة المتصلة بماضي الانتهاكات الجسيمة، وبتطــورات قضايا حقوق الإنسان، والإصلاح الديموقراطي.

- بلــورة مقاربة جديــدة لحفظ الذاكرة، تستهدف تحويــل بنايات الاعتقال والاحتجــاز والتعذيــب السابقة كالمعتقــل السري تازممــارت ومعتقل كرامة وغيرهــا إلى أماكــن لحفظ الذاكــرة، باعتبارهــا شواهد، وذلــك في إطار مشاريع جبر الضرر الجماعي.[2]

- القيام بمراجعــة لبرامج محتوى التاريخ، وتشجيــع البحث العلمي المتعلق بالتاريخ الراهن، وبالخصوص التركيز على فترة ما بعد الاستقلال.

---

(1) تعرضــت تجربــة المصالحة لانتقادات متعــددة، من قِبَلِ العَدِيــد من الهيئات والشخصيــات؛ فالإهمال والإقصــاء طال العديد من الملفات والقضايا، والعديد من التوصيات لم تُطبق على أرض الواقع، كما أن تراجع رصيد المغرب في مجال حقوق الإنسان بعد حدث 16 ماي 2002 مخيب للآمال؛ فالعودة مجدداً إلــى ممارسة أساليب الاختطاف والتعذيب تطرح أكثر من سؤال بخصوص فكرة التعهد بعدم تكرار ما جرى، والقطع مع أساليب الماضي.

(2) مــن الناحية الرمزية–على سبيل المثال– تمَّت عملية إعــادة الدفن للهالكين بمقبرتي أكدز وتازممارت، كمــا أُعِدَّتْ دراسات عن أماكن تعرضت للضــرر والتهميش، بهدف النهوض بها، ونخص بالذكر كتاب: إملشيــل الذاكــرة الجماعيــة، إعداد باسو اوجبــور، ولحسن أيــت الفقيه، مطبعــة الطوبريس، طنجة، منشــورات جمعيــة أخيام، في إطــار برنامج جبر الضرر الجماعــي، الذي يشرف علــى تنفيذه المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، في الشِّقِّ المُرْتبط تمويله بالاتحاد الأوروبي، والكتاب في 178 صفحة.

إن الاهتمـام بتاريـخ الزمـن الحاضر تحـدٍ كبير تفرضه المهمـة الجديدة الملقاة على عاتق المـؤرخ، لتجاوز أزمة الشك التي تمس اليوم مهنة التاريخ، ينضاف إلى ذلك المكانة الكبيرة التي يحظى بها الماضي القريب، والذاكرة، والشهـادة، لـدى العمـوم. وقـد سـاهـم الصعـود القـوي لوسائـل الإعلام والتواصل، في إعادة البريـق للراهن، وللشاهد، وللفاعل التاريخي، وللحياة اليوميـة. لكن، تَطرح كتابة هذا التاريخ مُعضلـة بالنسبة للمؤرخين، خاصة في الجانـب المتعلـق بصعوبة الحصول علـى الوثائق؛ إذ يتعـذر ذلك بسبب قصر المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن هذه الأحداث، ولعدم اكتمال سلسلة حلقات الحدث، ولحساسية بعض القضايا التي قد تكون محل نظر قضائي، وأخيراً تُطرح قضية الموضوعية بحكم علاقة الأحداث بالواقع المعاش.

2 - تاريخ الزمن الراهن وضغوطات السّاسة والسّياسة

هـل يتدخـل السياسيون في كتابـة التاريـخ؟ بالتأكيد نعـم، فالتاريخ يكتبه في نهايـة المطـاف المنتصـرون. لكن هـل هذا مقبـول اليوم لـدى المؤرخين الأكاديميـين؟ بالتأكيـد لا، بل هو أمر مرفوض بشـكل مطلق؛ فليس من حق السياسـي توجيه التاريخي، ذلك ما عـبَّر عنه بيير نورا، في حواره مع مجلة لوفيغـارو؛ فقد أبدى -كما غيره من علماء التاريـخ- معارضة شديدة لسن البرلمـان الفرنسـي تشريعـات تتضمن أحكامـاً على أحـداث تاريخية، مثل مجـازر الأرمـن، باعتبارها قوانين تُعِيـقُ دورهم العلمـي في دراسة التاريخ ومناقشتـه[1]. وقد ساهمت هذه القضية، على المستـوى السياسي، في توتير العلاقات التركية الفرنسية؛ فقد هددت أنقرة بفرض عقوبات على فرنسا، وكذا تعليق جميع الزيارات الرسمية بين البلدين، وتجميد المشاريع العسكرية

(1) حوار بيير نورا مع جان سيفيليا عن مجلة لوفيغارو ماغازين. ترجمة يقظان التقي، جريدة المستقبل،20 فبراير، 2012، العدد 4261.

الثنائية، في حالة ما إذا أقدمت هذه الأخيرة على المصادقة على قانون يجرم إنــكار الإبادة الجماعية للأرمن، على يد السلطنة العثمانية في مطلع القرن الماضي. هذا ما أعلن عنه رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، رئيس الــوزراء التركي، في إحدى مقابلاتــه التلفزيونية. ويُذكر أن فرنسا اعترفت رسمياً بالإبادة الجماعية التي ارتكبتها الإمبراطورية العثمانية في حق مئات الآلاف مــن الأرمن، فيما بــين عامي 1915 و1917، وقــد صادقت الجمعية الفرنسيــة، بأغلبية ساحقة، على قانون تجريم إنــكار إبادة الأرمن، على يد الأتــراك العثمانيــين. وينص مشــروع القانون الذي تقدمت بــه النائبة عن حزب اليمين فاليري بواييه، على معاقبة كل من ينكر إبادة الأرمن، بالسجن عاماً، وأداء غرامة مالية قدرها 45 ألف يورو، وقد تم استصدار هذا القرار بحضور عدد كبير مــن ممثلي الجمعيات الأرمنية والتركية في فرنسا. وفور المصادقــة على هــذا القانون، عــبّر المواطنــون الأرمن عــن سعادتهم بهذا الحــدث، الذي اعتبروه تكريماً لذاكرة الضحايــا، ولكل الذين قتلوا على يد العثمانيــين، في حين عَبَّر مُمثل الجمعيات التركيــة بفرنسا عن استيائه من الموقف الفرنسي، وتجلى احتجاج أنقرة على نص القرار، في سحب سفيرها المعتمــد لدى باريس. وكان رئيس الوزراء التركــي قد اتهم فرنسا -في إطار رد الفعل- بارتكابها جرائم إبادة في حق الجزائر، في إشارة ضمنية منه إلى الماضــي الاستعماري الفرنسي، المتعلق بضحايــا المعارك، من أجل استقلال الجزائر عن الاستعمار الفرنسي، فيما بين 1945 و1962، والذين بلغوا أزيد من مليون ونصف المليون شهيد.[1]

يصعــب التحرر مــن الضغوطات السياسية، ومن الرقابــة، كلما تعلق الأمر

(1) ذكريــات الماضي، وقضايا الذاكرة، تفرض نفسهــا دائماً على السياسيين؛ ففي الزيارة الأخيرة للرئيس الفرنســي هولاند إلى الجزائر، طُرحت مسألة تقديم الاعتذار، ونالت حيزاً كبيراً في التغطية الإعلامية المواكبة للزيارة.

بقضايا الزمن القريب؛ فقد خضعت حرب الجزائر بين 1955-1962 بالفعل للرقابة السياسية في فرنسا، فقانون 3 أبريل 1955، خول للسلطات الإدارية الفرنسية اتخاذ كل الإجراءات لتأمين مراقبة الصحافة، والمنشورات، من كافة الأنواع، وقد استندت البراهين المعتمدة على الخطر الذي تشكله هذه المطبوعات على أمن الدولة، وما تُسَبِّبُه من إساءة للمؤسسة العسكرية، وبناء على ذلك، تمت مصادرة عدد كبير من الكتب التي تفضح طرق التعذيب، التي كان يستخدمها الجيش الفرنسي في الجزائر، من الاستعمال المنتظم للتعذيب خلال التحقيقات، والإعدامات بلا محاكمة.[1]

وفي ألمانيا أيضاً تطرح قضية الرقابة، كلما تعلق الأمر بالقضية الشائكة المرتبطة بإرث النازية؛ إذ تُمارس الرقابة في شأنها بشكل شديد، فهي تقمع ما يُنشر عن اليهود، وبالخصوص ما يتعلق بالتشكيك في المحرقة، باعتبارها كتابات معادية للسامية. بل وقعت بألمانيا في أواخر الثمانينات (بين 1986-1988) مشاداة كبرى، عرفت باسم مشاجرة المؤرخين؛ فقد نشأ خلاف عميق بين مؤرخين متخصصين بالعهد النازي، وفلاسفة على قدر كبير من الأهمية، أبرزهم: يورغن هابرماس، حول قضايا من قبيل فرادة النازية كحدث غير قابل للمقارنة بغيره، ومدى صحة مقارنته بالستالينية، أو بالأنظمة الشمولية التوتاليتارية. وهو الأمر الذي تبنته حنة آرندت ذات الأصول اليهودية، وقد تركز الجدل في النهاية حول مدى استمرارية الأمة الألمانية من خلال الكارثة وما بعدها، وقد نُشرت ترجمة وافية لهذه المشاجرات باللغة الفرنسية تحت عنوان: أمام التاريخ، وثائق المشاجرة

(1) - روبرت نيتز. تاريخ الرقابة على المطبوعات. ترجمة فؤاد شاهين، سلسلة نصوص، الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008، ص133.

حـول فرادة إبادة اليهود من قبل النظام النـازي[1]، ونشير إلى أن ألمانيا ما زالـت، إلى اليـوم، لم تتجاوز عقدة الذنب المتعلقـة بمسؤوليتها عن المحرقة اليهوديـة، التي ارتكبت أيام حكـم النازيين، لدرجـة أن مواقفها السياسية إلـى اليـوم من قضايا الشرق الأوسـط مكبلة بهذا الحدث، الـذي يُعَدُّ أحد أسباب الصمت الألماني بشـأن مجازر الإسرائيليين ضد الفلسطينيين، وهو من الأسباب المفسرة لاستمرار الدعم العسكري الذي تقدمه الدولة الألمانية لإسرائيل لحد الآن، كتعويض وتكفير عن جريمة سابقة ارتكبها نظام سابق، نـال جزاءه الكامل، وطويت صفحـة الماضي بالاعتراف والمعاقبة. وبه نفسر أيضاً الضجة الإعلامية الكبيرة التي أثارتها قصيدة: (ما ينبغي أن يقال)، والتـي نشرها الأديب الألمـاني الشهير غونتر غراسـ، الحاصل على جائزة نوبل سنة 1999.

في نفسـ سيـاق المبالغـات المتعلقة بمحرقـة الهلوكوسـت، تَعَرَّضـ روجيه غـارودي، أحـد أشهر مفكـري القـرن العشريـن في فرنسا، إلـى محاكمة شهـيرة بسبب نفيه وقـوع المحرقة اليهودية بالشكل الـذي تُرَوِّجُهُ المنظمات الصهيونية. وهو إنكار يصطدم مع أغلب القوانين في الدول الأوروبية، والتي تمنع التشكيك في المجازر التي وقعت لليهود خلال الحرب العالمية الثانية.[2] لقـد عُرِف عن هذا الفيلسوف عداؤه الفكري والسياسي للحركة الصهيونية

(1) بول ريكور. الذاكرة، التاريخ، النسيان. م.س. من ص 384 الى 394.

(2) تبنـت الدول الأعضـاء في الاتحاد الأوروبي عقوبات جزائية موحدة ضد مـن ينكر المحرقة، فقد غرمت على سبيل المثال محكمة في جنوب ألمانيا الأسقف الكاثوليكي البريطاني ريتشارد وليامسون ب 10 آلاف يـورو بعـد إدانته غيابياً بتهمة إنكار المحرقة اليهودية في ألمانيـا النازية وذلك خلال مقابلة أجراها معه التليفزيون السويدي على الأراضي الألمانية في يناير سنة 2009. كما صدرت أحكام قضائية مشابهة في بريطانيـا ضـد كل من ينكر المحرقة النازية، وتعتبر إسبانيا من الدول الأوروبية التي قررت بها المحكمة الدستورية إلغاء عقوبة السجن المضمنة في القانون الجنائي لمن تتم إدانتهم بإنكار المحرقة ضد اليهود الهولوكوسـت، وقـد كان القانون الجنائي الإسباني يعاقب كل من ينفي أو يبرر جرائم الإبادة الجماعية لليهود بالسجن من عام إلى عامين.

العالمية، ولدولة الاحتلال الإسرائيلي، قبل صدور الكتاب الذي حوكم بسببه. وتعود أول مجابهة علنية له مع الصهيونية، إلى مقال نشره، إلى جانب مفكرين فرنسيين آخرين، في صحيفة لوموند الفرنسية، ينتقد فيه بشكل لاذع، إقدام إسرائيل على اجتياح لبنان، وارتكاب مذبحة صبرا وشاتيلا، عام 1982. وفي سنة 1996، أصدر كتابه: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، وهو الكتاب الذي أثار ضجة كبرى خصوصاً وسط الجاليات اليهودية بأوروبا[1]؛ إذ شكك في مقتل ستة ملايين يهودي على يد نظام هتلر. وهو العدد المزعوم لضحايا الهلوكست، كما نقض فكرة وجود أفران الغاز في العهد النازي، مفنداً بالحجج والأدلة التاريخية المغالطات اليهودية بشأن الأرقام المبالغ فيها عن ضحايا المحرقة. وقد تمت ملاحقته قضائياً في فرنسا بتهمة إنكاره جريمة مؤكدة ضد الإنسانية (استناداً إلى قانون 13 يوليو 1990، المسمى قانون غايسو Gayssot)[2]، وقد أصدرت المحكمة، في حقه سنة 1998، قراراً بالسجن تسعة أشهر مع وقف التنفيذ، وبدفع غرامة مالية قدرها 25 ألف يورو. بعدها أصبح هذا الفيلسوف مهمشاً في فرنسا، والغرب عموماً؛ فقد تعرضت كتبه، ومحاضراته للتعتيم الإعلامي، بسبب سطوة اللوبي الصهيوني على وسائل الإعلام، ودور النشر. ونشير إلى أن مسألة تهميش المفكرين الفرنسيين في بلدهم بسبب مواقفهم، وآرائهم السياسية، والفلسفية، موضة مُتجذرة في هذا البلد، منذ الخمسينات.

(1) ارتبطت مسألة تأكيد محرقة الهولوكوست بصحوة الهوية اليهودية التي تركز على تثبيت الإبادة الجماعية كمقوم أساسي للذاكرة اليهودية، لكن نشهد اليوم عودة النقاشات والجدالات في المجلات والدوريات حول النازية والمحرقة.

(2) روبرت نيتز. تاريخ الرقابة على المطبوعات. ترجمة فؤاد شاهينم س، ص144. لقد شهدت أوروبا سلسلة من القوانين والإجراءات الرقابية على المطبوعات منذ القديم، وكانت تقوم بها -حسب الفترات- أطراف ثلاثة، الدولة والكنيسة والبرلمان، والملاحظ أن الرقابة خفت بشكل كبير في أوروبا اليوم، في حين ما زالت قوية في البلدان العربية بسبب غياب الديموقراطية راجع: علي أومليل. السلطة الثقافية والسلطة السياسية م، س، ص242.

وخـير مثـال على ذلـك، وضعيـة الفيلسـوف الفرنسي بول ريكـور الذي لم تغفر له الأوسـاط البنيوية، خلال مرحلة الستينات والسبعينات، ما جاء في كتابه: الاستعارة الحية من انتقادات شديدة لمدارسها[1]، ولهذا السبب ظلت أعمـال هذا الفيلسوف خارج دوائر النقاش الفرنسي إلى حدود الثمانينات؛ فكُتُبُهُ الأولـى لم تستقبل في فرنسا بشكل جيد، وخصوصاً كتابه: في التأويل مقالة حول فرويد، والذي كان وقع صدوره صادماً لأتباع المدرسة الفرويدية المزهوة بانتصارها. فقد عَبَّرَ جاك لاكان عن امتعاضه وغضبه الشديد من هـذا الكتاب، مما سبب خيبة أمل كبيرة لبـول ريكور، الذي غادر فرنسا في اتجـاه القارة الأمريكيـة. وفي الثمانينات عادت فرنسـا لمصالحة فيلسوفها ريكور، وخصوصاً بعد صدور الأجزاء الثلاثة من كتابه: الزمان والسرد، وقد تزامن ذلك مع بداية أفول موجة البنيوية[2]؛ فهذه المدرسة أعاقت الاعتراف بِـكُلِّ مـن كان يعارضها، أو يوجه إليهـا سهام النقد. لكـن الوضعية تغيرت الآن، وتمـت إعادة الاعتبار إلى ريكـور، وإن بشكل متأخر؛ ففي سنة 1987، تم الاحتفـاء بهذا الفيلسوف الذي ظل مغيباً عن الساحة الثقافية الفرنسية لأزيـد من ثلاثة عقود، وقد بـدأ الاهتمام من جديـد بأعماله، فصدر عدد خاص عنه في المجلة الشهيرة فكر، في يوليو سنة 1988، كما نُظِّمَتْ في السنة نفسها ندوة حول فكره، كما أُنْجِزَت بيوغرافيات متعددة عن حياته وفكره.

3 - الحدث الراهن ودهم الذاكرة

إن مؤرخ اللحظة، يتعامل مع الحدث حين وقوعه؛ فهو يؤرخ للحاضر، ولكنه لا يـؤرخ للتاريخ الحاضر؛ فالخـبر الصحفي يظل غير مكتمل، وغير مفهوم

---

(1) تميزت الموضة البنيوية التي سادت باريس خلال تلك المرحلة بالانغلاق ورفض سماع الأصوات المخالفة.

(2) للمزيـد راجـع تقديم جورج زيناتي لكتاب بـول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيـان. م.س، من ص5 إلى ص 20.

بالشـكل المطلوب، فهو في الغالب يأتي مفصولاً عن سوابقه ولواحقه، ويبقى في حاجة ماسة للزيادة والإتمام[1]. وهذا من بين الأسباب التي تجعل غالبية المؤرخـين تتجنب تناول التاريخ الحاضر؛ فهذا النـوع من الكتابة التاريخية يبقـى أفقاً صعباً لعوامل ثلاثـة: أولها غياب البعـد التاريخي الضامن -في نظرهـم- للموضوعيـة التاريخيـة المنشودة عنـد كل مـؤرخ. وثانيها قضية المصـادر من حيـث تنوعها، وخاصة المصـادر الشفوية لشهـود العيان، وما يحـوم حولها مـن تشكيـك في مصداقيتها. وثالثها يكمـن في صعوبة تحليل وتأويـل الحـدث الآني الذي لا نعـرف بعد، نهايتـه ومآلـه وانعكاساته على مجـرى الأحداث. هـذا بالإضافة إلى تخوفات بعض المؤرخين من التداخل بـين التاريخ والصحافة والعدالة أحياناً[2]؛ فالأحداث الساخنة القريبة تثير الحساسيـات، وتتسبب في لغط كبير، وتطرح العديد من التساؤلات بالنسبة إلـى ممارسـة للمؤرخين، لوجـود الشهود مـن الناجين، ومـن المتسببين في الكوارث؛ فيتداخل بذلك، دور المؤرخ بشهادة الشهود بِدَهْمِ الذاكرة.

إن الضحايـا مـن الناجـين يسعون إلى تحقيـق العدالـة القضائية، وكشف الحقيقة، وحفظ الذاكـرة، ويسعون إلى إعادة الاعتبـار، وفعاليات المجتمع المـدني تناضل وتعمل من أجـل عدم تكرار ما جرى، والدولـة التي عادة ما تكـون طرفـاً في بعض القضايـا، مُطالبـة بالاعـتراف، وبالتعويض، وبجبر الضرر. هذا التداخل يطرح مشكلة عويصة بالنسبة للنتائج التي تترتب عن الغوص في تاريـخ الزمن الراهـن؛ فهدف المؤرخ مختلـف بشكل جذري عن مواقف الأطراف -السابقة الذكر- المعنية بالموضوع، فغايته ليست التنديد، أو كشف الأسرار، وإنما الفهم، وتقبل (أن ما حدث قد حدث)، دون الدخول

(1) عبدالله العروي. مفهوم التاريخ.م، س، ص72.

(2) فريد سليمان. مدخل إلى دراسة التاريخ ، م، س ص151.

في متاهة تبرئة أو اتهام أي طرف من الأطراف.

هنـاك صلات معقَّدة بين الذاكرة والتاريخ، وتتعـدد الحوادث والموضوعات التـي تنتمي إلـى التاريخ القريـب زمنياً، والتـي تطرح حساسيـات مفرطة للدولـة، والجماعات، والأفراد؛ فتاريخ حكومـة فيشي المتعاونة مع الاحتلال النـازي الألمـاني، في فـترة الحـرب العالمية الثانيـة، مثال لهـذا الشكل من الالتباس؛ فقـد تعمَّـدت الدولة الفرنسية تجنـب تدريس هـذه المرحلة إلى حدود أواخر الثمانينات.

لم يتنـاول التأريخ الأكاديمي الفرنسي نظام فيشي، ولا شخصية الماريشال بيتـان Philippe Pétain[1]، بالبحث إلا بعد انقضـاء خمسة وعشرين عاماً علـى نهايته. والنَّدوة الأولى التي تصَدّت لسنـوات نظام بيتان نظَّمها رينيه ريمون، في 1970، بمعهد العلوم السياسية، وتناولت موضوع (حكومة فيشي والثـورة الوطنية بـين 1940 – 1944). وقـد أغفلت المداخـلات، مسؤولية نظـام فيشـي عـن ترحيـل اليهـود الفرنسيـين واحتجازهـم في المعتقلات النـازيـة، لحساسية الموضوع. وفي الثمانينات حصل تطور مهم؛ فقد خرجت المحفوظات عن هذه الفترة المُحرجة، إلى الوجود، مما أثار احتقاناً سياسياً فكريـاً واهتماماً شعبيـاً كبيراً. وفي سنـة 1992 أصبح نظـام فيشي (شأناً عامـاً) يخوض فيه الجميع؛ مما نتج عنه اضطـراب في الأوضاع الداخلية؛

(1) فيليـب بيتان (1856–1951): القائد العسكري الفرنسي البارز خلال الحرب العالمية الأولى لمساهمته الفعالـة في انتصـار الفرنسيين علـى الألمان، وقد ترقى نتيجـة لذلك في المناصـب العسكرية حتى صار مارشـال. غير أنه بعد استسـلام فرنسا في المرحلة الأولى من الحرب العالميـة الثانية، وقَّع هدنة باسم بـلاده مع هتلـر، اعترف بمقتضاها باحتـلال ألمانيا لثلاثة أربـاع التراب الفرنسي. وقـد شكل بعهدها حكومة موالية لهم في مدينة فيشي، وبعد تمكن الحلفاء من تحرير فرنسا، نُقل إلى ألمانيا، غير أنه عاد برغبته إلى فرنسا عام 1945، وقدم نفسه للمحاكمة، حيث أدين بتهمة الخيانة العظمى، وسط تشكيك كبـير بعدالـة المحكمة التي أصدرت حكم الإعدام عليه. وقد تدخـل الرئيس دوغول؛ فخفَّف عقوبته إلى المؤبـد، ومـات بيتان في السجن عام 1951، أما مساعده بيير لافال فقـد نُفِّذ فيه الحكم بالإعدام رمياً بالرصاص في أكتوبر 1945.

فقد خرجت التظاهرات، وكتبت بيانات في الموضوع، ولم يتم احتواء الأحداث إلا بعد تدخل السلطة[1]. وقد أسفرت هذه الأجواء المتوترة سنة 1991 عن قضية رينيه بوسكيه René Bousquet[2]. وأدت أيضاً سنة 1994 إلى محاكمة بول توفييه Paul Touvier[3]. كما تمّت سنة 1998 محاكمة موريس بابون Maurice Papon، باعتباره مسؤولاً مباشراً عن تسهيل تسفير اليهود إلى ألمانيا في عهد حكومة فيشي عندما كان أميناً عاماً لمحافظة الجيروند، وقد أفرج عنه سنة 2002 لأسباب صحية. غير أن الاضطراب الذي أثاره تحريره، والذي يعود فقط إلى تطبيق إجراء جديد ورد في القانون الفرنسي، بيّن تماماً أنه سيبقى حتى موته معاصراً لجريمته، فبدلاً من أن يحمل الزمان النسيان، أحيا الذاكرة، وأعاد بناء الذكرى وفرضها، وهذا ما اصطَلح عليه هنري روسو (الزمن الذي لا يمضي)، حيث يبقى المجرم معاصراً لجريمته.[4]

إن حقبة فرنسا التي تَلَتْ أعمال عنف 1940-1945م خصوصاً الالتباس السياسي لنظام فيشي، أدى إلى تبني ثلة من المؤرخين بعض مفاهيم

(1) راجع: هنري روسو، (التاريخ المعاصر يقترب من الماضي القريب وأصدائه في الحاضر الحار)، ترجمة منال نحاس، جريدة الحياة، يوم 13 فبراير 2013.

(2) رينيه بوسكيه: سياسي فرنسي شغل مناصب مهمة في عهد فيشي، ثم عمل في الصحافة ودعّم فرانسوا ميتران في معركته الانتخابية لمنصب رئيس الجمهورية ضد فاليري جيسكار ديستان، ثم صار وميتران صديقين عندما تم انتخاب هذا الأخير رئيساً لجمهورية فرنسا. لكن صداقتهما توقفت حين اتهم بوسكيه بتسفير اليهود إلى ألمانيا في عهد فيشي، وقد أقيمت الدعوى عليه لهذا السبب سنة 1991، غير أن اغتياله في 8 حزيران/يونيو عام 1993 وضع حداً للدّعوى وللحكم عليه. راجع: فرانسوا هارتوغ، تدابير التاريخانية، الحاضرية وتجارب الزمن، ترجمة بدر الدين عردوكي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص341.

(3) بول توفييه: الرئيس السابق لميليشيا ليون، عفا عنه الرئيس بومبيدو سنة 1972، والذي كان يريد من ناحيته وضع الحجاب على الزمان الذي كان فيه الفرنسيون لا يحب بعضهم البعض الآخر، حكم عليه بعد 22 عاماً، لارتكابه جرائم ضد الإنسانية، راجع: فرانسوا هارتوغ، تدابير التاريخانية، الحاضرية وتجارب الزمن، م س، ص202، 203.

(4) فرانسوا هارتوغ، تدابير التاريخانية: الحاضرية وتجارب الزمن، م س، ص202.

التحليل النفسي التي سقطت في حقل الميدان العام مثل الصدمة، والكبت، وعودة المكبوت. ولذلك فقد جازف هنري روسو مجازفة ابستمولوجية وأحياناً سياسية -في نظر بول ريكور- حين أقام شبكة قراءة لأحداث فترة فيشي على أساس مفهوم الوسواس (وسواس الماضي)، وتعبير (الزمن الذي لا يمضي)، الوارد سابقاً، وهو مرادف للتعبير (وسواس) الذي نجده في سجالات المؤرخين الألمان.(1)

إن مرور خمسين سنة على الحدث لم يكن كافياً للنسيان وتجاوز العُقَد؛ فذاكرة فيشي تشكل في فرنسا (الماضي الذي لا يمضي)، فالجيل الذي عانى من ويلات الماضي القريب، تُعطيه القوانين الحق في فتح محاكمة دائمة، وهو ما نلمسه في المثال الذي قدمناه؛ فقد أُدين البعض في فترة التسعينات بتهم تتعلق بفترة حكومة فيشي، استناداً إلى المعطيات والأسرار الجديدة التي كشفتها المستندات المحررة من الرقابة.(2)

لقد أصبح التأريخ لهذه المرحلة أكثر صعوبة جرَّاء دهم الذاكرة للحاضر وتخييمها عليه؛ ولذا تمت المبادرة إلى حجب المحفوظات وحظر مراجعتها على الجمهور. وكان ذلك واضحاً في بيان رئيس مجلس الوزراء الذي صدر في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1997 بشأن تخفيف قواعد استشارة الوثائق الخاصة بفترة 1904-1945، إذ يذكر البيان بأن (من واجب الجمهورية المحافظة على ذاكرة الأحداث التي جرت خلال تلك الفترة من الزمن).(3)

(إن فيشي كانت دوماً وستظل باطلة وغير موجودة)، بهذه العبارة تحدث

---

(1) بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان. ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت، 2009، ص650، بما فيها الهامش.

(2) راجع: هنري روسو، (التاريخ المعاصر يقترب من الماضي القريب وأصدائه في الحاضر الحار)، ترجمة منال نحاس، جريدة الحياة، يوم 13 فبراير 2013.

(3) فرانسوا هارتوغ، تدابير التاريخانية، الحاضرية وتجارب الزمن، م س، ص202.

الرئيس الفرنسي الجنرال شارل دوغول Charles de Gaulle، الذي سعى إلى وضع نظام فيشي بين قوسين طامساً بذلك خصوصية الاحتلال النازي، لكنه لم ينجح في مهمة الإخفاء ومعها تحقيق النسيان المرغوب فيه، إنه لم يستطع منع الظهور؛ فالاحتفالات التذكارية وعودة ضحايا معسكرات الاعتقال إلى الواجهة ميَّزت فترات معيَّنة من حقبة حكمه.[1]

بل إن ما هو خطير في عمليات الالتباس المتعلقة بجرائم النازية ذلك الخلط بين المسؤول ومنفذ الأوامر، ولذا انتقدت حنة ارندت ما حدث في محاكمة أدولف ايخلمان Adolf Eichmann أحد المسؤولين في الرايخ الثالث والضابط في القوات الخاصة الألمانية أو ما تعرف بقوات العاصفة. وهو الذي كانت تَعُود إليه مسؤولية الترتيبات اللوجستية باعتباره رئيساً لجهاز البوليس السري والإدارة المكلفة بإعداد مستلزمات المدنيين في معسكرات الاعتقال وإبادتهم فيما يعرف آنذاك بالحل النهائي. وقد تعاون مع قيادات الجاليات اليهودية قصد تهجير العديد من يهود المجر إلى سويسرا بدلاً من إبادتهم في أوشفيتز[2]، ولكنه ساهم مع ذلك في تنفيذ سياسة الحل النهائي التي انتهجها النظام النازي. وعند انتهاء الحرب العالمية الثانية تمكن ايخمان من الهرب والتخفي في الأرجنتين باسم مستعار وشخصية جديدة حتى سنة 1960، حيث تمكن عملاء الموساد من إلقاء القبض عليه في بوينوس أيريس، ونقلوه غير مبالين لا بالمواثيق الدولية ولا بحرمة الأراضي الأرجنتينية إلى القدس، حيث وقعت محاكمته، وتمَّت إدانته، وقد

(1) من أشهر الاحتفالات التي أقيمت بفرنسا تلك التي تمت سنة 1964 بمناسبة الذكرى العشرين للتحرير، وتميزت بنقل رفات جان مولان الذي مات تحت التعذيب النازي إلى البانتيون المخصص للعظماء راجع: بول ريكور، الذاكرة، التاريخ النسيان، م س، ص652.

(2) أوشفيتز: معسكر اعتقال شهير ببولندا أقامته النازية خلال الحرب العالمية الثانية لليهود، ويقدر عدد من ماتوا فيه ما بين المليون والمليون ونصف حسب الروايات الرسمية الألمانية.

انتهى الأمــر بإعدامه شنقاً سنة 1962م، وأُحْرِقَتْ جثته مباشرة بعد ذلك، وأُلقِي رمادها في مياه البحر الأبيض المتوسط.[1]

ظلــت الحرب العالمية الثانية من المواضيع المحرمة في ألمانيا، حتى إن كتاب كفاحي ظل بيعه أمراً محظوراً، إلا أن ما كان ممنوعاً بالأمس أضحى اليوم وبعد مرور حوالي سبعين سنــة، موضوعاً للاهتمام؛ فهذا الكتاب السياسي المخيــف الذي دعَّمته الدولة النازية، وطبعت منه ملايين النسخ عام 1933، وَوُزِّع بشــكل واسع على أعضاء الحزب والأنصــار، يعرف حظراً صارماً من قبل الدولة الألمانية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية[2]. وبالرغم من الجهود المبذولــة مــن طرف حكومة بافاريــا في هذا المجــال إلا أن كتاب كفاحي ظل يُطبــع ويباع في مناطق عديــدة من العالم؛ فهو متوفر في عــدد من المكتبات العامــة في كل من اليونان، والصين، وبلغاريا، واليابــان، وكرواتيا، وروسيا، ونيوزيلانــدا الجديــدة، وكوريا الجنوبيــة، وأستراليــا، وإيطاليــا، والهند، وتركيــا، وفنلنــدا، وإندونيسيا، وكولومبيا، وهولنــدا، والمغرب، والدنمارك، والأرجنتين، والبرازيل، وإسبانيا.[3]

(1) أبــرزت حنــة ارندت في انتقاداتها الموجهــة للمحاكمة أن ايخلمان كان مجرد موظــف صغير، تافه، وأنه لم يكــن شاذاً أو سادياً، مثلما حاول المدعي العام الإسرائيلــي تصويره وتقديمه، بل كان شخصاً عادياً ومرعباً في عاديته، وأنه تصرف كأي مواطن لا يمتلك القدرة على اتخاذ القرار، وأنه بدوره ضحية من ضحايا النظام التوتاليتاري، وعليه لم تر ارندت في ايخمان تجسيداً للشر، واعتبرت محاكمته مسرحية سياسيــة استغلهــا دافيــد بن غوريــون للحصول على المزيــد من التعويضــات المالية من ألمانيــا الغربية آنــذاك. راجع: نــادرة السنوسي، (حنة آرندت وموقفهــا من النازية)، ضمن: الفعــل السياسي بوصفه ثــورة، دراسات في جدل السلطة والعنف عند حنة آرندت، إشراف وتنسيق علي عبود المحمداوي، تقديم محمد شوقي الزين، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 2013، ص231–232.

(2) ظــل الاعتقاد السائــد لسنوات أن كتاب هتلر كفاحي لم يكن يقرأ، ولم يحظ بأي اهتمام، إلا أن دراسات المؤرخــين أظهــرت العكس، فالكتاب أثار فضــولاً كبيراً في الداخل والخارج، وتمــت ترجمته إلى العديد من اللغات.

(3) توجت جهود القنصليات الألمانية في عدد من البلدان من منع تداول كتاب كفاحي، كما هو الحال بالنسبة لروسيــا سنة 1992، والبرتغال سنة 1998، وجمهورية التشيك سنة 2000، غير أنها لم تستطع إيقاف

إن إقبـال القـراء على اقتناء كتاب مذكرات الزعيـم النازي في العديد من البلـدان تؤكـده إحصائيـات مبيعات الكتـاب، إذ يأتي ضمـن قائمة الكتب السياسيـة الأكثر مبيعـاً في جميع الأزمنـة، ومن العلامـات الفارقة اليوم، الإقبال الكبير الذي تلاقيه الطبعة الرقمية منه في البلدان التي تمنع تداوله.

تشهـد ألمانيا اليـوم نقاشات داخلية حادة بشأن إعـادة طبع وتوزيع الكتاب في الأسـواق الداخليـة. وإذا كان (معهـد التاريخ المعاصـر) التابع لجامعة ميونيـخ قد أبدى رغبـة حثيثة في إتمـام مشروع إصدار نسخـة جديدة من كتاب كفاحي المحظور مصحوبة بتعليقات نقدية، فإن حكومة بافاريا عبرت عن معارضتها الشديدة، باعتبارهـا الجهة التي تحتفظ قانونياً بحق ملكية الكتـاب إلـى غاية نهاية سنـة 2015، وأصدرت قراراً عاجـلاً بوقف الدعم المالي للمشروع بدعوى أن الكتاب (تحريضي)، ومليء بالكراهية والاحتقار ومعاداة السامية.

لقـد أثار قرار وقف مشـروع معهد التاريخ حالة مـن الامتعاض في صفوف الباحثـين؛ فقد عبَّر المؤرخ فولكـر أولريش، عن رفضه لهـذا القرار واصفاً إيـاه بالفضيحـة، وسانـد في تصريحاته جهـود زملائه المؤرخـين في معهد ميونيـخ، وثمَّـن رغبتهم فك لغز مصـادر كتاب هتلر؛ فالتسـاؤل ملح بشأن الأفـكار الواردة فيه هل هـي مواقفه الخاصة أم أنه قـام بتجميع معتقدات عصـره؟ نافياً في نفس الوقت فكرة التحريض عـن الكتاب بعد مرور عقود علـى الحرب والمحرقة، مؤكـداً أن الكتاب لا يشكل أي خطـورة في الراهن، وقـد وافقه في الرأي مدير معهد الأبحـاث التاريخية بميونيخ، والذي اعتبر أن صدور نسخة جديدة من الكتاب الممنوع مصحوبة بتعليقات توضيحية قد

زحف الكتاب في عدد من البلدان الأخرى. راجع:

.Antoine Vitkine، Mein Kampf histoire d’un livre، Flammarion، 2009، p.235

ينهـي الأسطورة التي تحوم حوله، فالتفهُّم يحتاج إلى البوح لا الصمت، وفي فرنسا قامت دار فيار بدورها بإصدار طبعة جديدة منه مع بداية هذه السنة (2016م)، وتعود أول طبعة للكتاب في هذا البلد إلى سنة 1934، وذلك قبل صدور قرار بتجريم نشره بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.[1]

ومـن المظاهـر الأخرى التـي توضح عودة الاهتمـام بفترة النازيـة بألمانيا الإقبـال الكبير الـذي تَلَقّاه سير هتلـر، وانتشار موجة مـن الكتب الجديدة التي تتنـاول الحقبة النازية اعتماداً على أرشيـف العائلات وعلى الروايات الشفويـة. كما جذب معرض خُصِّصَ لهتلر سنة 2011 عشرات الآلاف من الأفـراد، وهو ما يوضِّح مـدى حضور شخصية الديكتاتـور في ذاكرة ألمانيا حالياً.

يصعب التحـرر من الضغوطات السياسية كلما تعلـق الأمر بقضايا الزمن القريب؛ ففي ألمانيا تطرح قضية الرقابة، كلما تعلق الأمر بالقضية الشائكة المرتبطـة بـإرث النازية؛ فهي تقمع مـا يُنشر عنهـا، وبالخصوص ما يتعلق بالتشكيـك في المحرقـة، باعتبارهـا كتابات معاديـة للساميـة. ولم تتجاوز ألمانيـا إلى اليوم، عقدة الذنـب المتعلقة بمسؤوليتها عـن المحرقة اليهودية، التي ارتكبت أيام حكم النازيين، لدرجة أن مواقفها السياسية إلى اليوم من قضايا الشرق الأوسط مُكَبَّلـة بهذا الحدث، الذي يُعَدُّ أحد أسباب الصمت الألماني بشأن مجازر الإسرائيليين في فلسطين.

(1) خالـد طحطـح، (نشر (كفاحي) مطلع 2016 هـل تنبعث النازية من جديد!) مجلـة الدوحة، عدد99، ص16، 17.

الفصل الثاني

وسائل الإعلام وصناعة الحدث

1 - طفرة وسائل الإعلام وعودة الحدث

برزت وسائل الاتصال إلى الوجود، مؤخراً، لتدل على ظاهرة قديمة عرفتها المجتمعات منذ بداية التجمع البشري؛ فالاتصال ليس حديث العهد، ولكن أدواتـه تطورت بشكل لم يسبق له مثيل، منذ اختراع المطبعة التي كانت أداة لتطور أهـم وأول وسيلة اتصال حديثة، ألا وهـي الصحافة. ومن ثَمَّ تبعتها الوسائل الأخرى، منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحتى نهاية القرن العشرين. فجـاءت السينما لتؤمن الاتصال عـبر الصورة، ثم بالصورة والصوت معاً، وتبعتهـا وسيلة الراديو التي تنقل الأخبار إلى كل بيـت. أما التلفزيون الذي أخـذ يُعَمَّمُ منذ أواسط القرن العشرين، فقد أحدث ما يشبه الثورة؛ إذ نَقَلَ إلـى المنازل الأخبار، والمشاهد، والاحتفـالات، بالصوت والصورة. هذا وقد تربعت أخيراً وسيلة الإنترنت على عرش وسائل الاتصالات، حيث بلغت أوج تطورهـا، وأمَّنَت للإنسان كل ما يحتـاج إليه من معلومات، ووثائق، وتسلية. وقـد سـاعـدت التقنيات الحديثة من ظهـور الهاتـف، والأقراص المضغوطة بمختلف أنواعها، والمواقع الإلكترونية، وصفحات الويب، ومحركات البحث، على تطور الاتصالات بسرعة فائقة. وتدخلت وسائل الاتصال هذه في حقول متعـددة، مثل: الإعلام، والإعـلان، والتربية، والتسليـة، ولا تزال تتمدد في اتجاه حقول إنسانية أخرى.[1]

وسائـل الاتصـال هي أولاً وقبل كل شـيء آخر وسيلـة، أداة تقنية، وسيط، ولكنهـا في الوقـت نفســه مشروعات، وأشـكال تعبير. وهـي تتقاسم بنسب متفاوتة، مهمات أو نشاطات مختلفة: الإعلام، والدعاية، والترفيه، والتربية، والإبـداع، وغالباً ما تتماهى مع أحد هـذه النشاطات، وهي تتخذ قيمتها في

(1) فرانسيس بـال. الميديـا. ترجمة فؤاد شاهـين، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديـد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008، من مقدمة المترجِم. ص5.

حقل استخدامها. وهكذا فإن وسائل الاتصال تفاجئنا على الدوام؛ فهي تؤثر في الحياة العالمية: في السياسة، وفي الثقافة أيضاً، وبالخصوص وسائل الإعلام المرئية، ذات الدور المحوري في تشكيل الرأي العام. ويتضاعف هذا التأثير لدى الفئات غير المتعلمة، والتي تصبح خاضعة بشكل مطلق لسطوتها، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار طول المدة الزمنية التي يقضيها هؤلاء أمام وسائل الإعلام، والتي تتراوح ما بين ست وتسع ساعات يومياً للفرد؛ فهذه المتابعة اليومية، من طرف المجتمعات المعاصرة للحصول على أكبر قدر من المعلومات، تحولت إلى نوع من الإدمان؛ إذ لم يعد الناس اليوم قادرين على الاستغناء عنها، وبالأخص جهاز التلفاز، الذي يعتبر الأكثر قدرة من بين وسائل الاتصال الأخرى على الفعل والتأثير؛ فليست هناك وسيلة طبعت القرن العشرين مثل التلفزيون، (فلا الصحافة التي استعار منها المحترفون لنشراته الإخبارية المتلفزة، ولا السينما، أو الراديو، اللذين داس على حطامهما دون حياء، من خلال شاشاته التي غزت المشاهدين؛ فخلال النصف الثاني من القرن العشرين، امتزجت مغامراته بتقدم التقنية)[1]، فقد أصبح التلفزيون الجديد في عصره الثاني -بفضل تطور الأقمار الصناعية- نافذة الجميع للإطلال على العالم.

في العقود الثلاثة الماضية، زادت نسبة مشاهدة الناس للتلفزيون؛ فالفرد منا قد يقضي ما مجموعه عشر سنوات من عمره في مشاهدة التلفاز. وقد

---

(1) تناول أستاذ العلوم السياسية، في جامعة باريس الثانية، فرانسيس بال، في كتابه: الميديا، وسائل الاتصال، بحسب ترتيب ظهور تقنياتها، متوقفاً، في القسم الأول، عند كل نوع على حدة، مبرزاً استعمالاته الأولى، وأهم مقاصده. وعالج في القسم الثاني الأهداف التي تضعها وسائل الإعلام، والغايات التي تُعَيَّنُ لها من قبل المجالات المُوجهة لها، وركز في القسم الثالث والأخير على تأثير وسائل الاتصال على السياسة، وعلى الثقافة، وعلى الحياة العالمية، في ظل النمو المتصاعد للتجارة الدولية، وللعولمة الاقتصادية. للمزيد راجع: فرانسيس بال. الميديا. ترجمة فؤاد شاهين، مرجع سابق، في150 صفحة.

تفطنــت الدول، والقنوات الإعلاميــة، والشركات الرأسماليــة الكبرى، إلى الــدور الذي تقوم به هذه الوسائل، في التأثير على آراء الناس، ومشاعرهم، فاستغلتهــا بمــا يخــدم مصالحهــا السياسيــة، والاقتصاديــة، والفكريــة، والتجاريــة. فوسائــل الإعــلام لا تعكــس العالم، بــل تُبرزه، وفــق تفسيرات المحللــين والمحرريــن وغيرهم، ممــن يتحكمــون في الصور التــي يُسمح لنا برؤيتهــا؛ فتجد في الغالب، تكريساً للصور النمطيــة، والتي تكون في الغالب إكليشيهــات مشوهــة، خصوصــاً وأن أغلــب جماهــير وسائــل الإعلام هم مستقبلــون سلبيــون، تؤثر فيهم هذه الوسائل بسهولــة، وقد تصاعدت حدة هذا التأثير مع تطور وسائل الإعلام الإلكترونية.[1]

نشهــد اليوم علــى سبيل المثــال، مساجلات بين الشــرق الإسلامي والغرب المسيحــي، تتفــاوت حدتهــا حسب الفــترات، تُوَظَّــفُ فيها كل أنــواع وسائل الإعلام المكتوبة، والسمعية، والمرئية، والإلكترونية. ويتم عبر هذه الوسائط المتطورة إحياء الصراع القديم الذي تداوله أدب أوروبا في القرون الوسطى حول الإســلام، والذي وُضِع في غالبيته من طرف رجــال الدين المسيحيين، الذيــن استنــدوا إلــى المؤلفات الجدليــة اللاهوتيــة الدفاعيــة للمسيحيين الشرقيــين. وكانت خلفية الصراع آنذاك، بين العالمين الإسلامي والمسيحي، في الأندلــس وصقليــة، والقدس، سببــاً في بروز هذه الدراســات. وساهمت الحروب الصليبيــة، بشكل أساسي، في تزايد اهتمــام الأوروبيين بالأبحاث حــول ثقافة وعلوم العــرب. وقد تزعم الأكليروس، خــلال تلك الفترة، الرد على مفاهيم وعقائد الإسلام، وبدأوا في نشر ما يدحض في زعمهم، ما جاء به القــرآن الكريم والنبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلم يعتبروا الإسلام

(1) بخصوص دور وسائل الإعلام في تشكيل وعي الناس، يراجع: آرثر اسا بيرغر. وسائل الإعلام والمجتمع، وجهــة نظر نقديــة. سلسلة عالم المعرفة، عدد 386، المجلس الوطنــي للثقافة، الكويت، 2012، في 270 صفحة.

ديناً جديداً، وإنما ادعوا أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم استمد أفكاره من الكتب السماوية السابقة. ومقابل هذه الصورة السيئة، التي قدمتها طبقة رجال الدين، كانت هناك إسهامات موضوعية، لكنها قليلة، اهتمت أساساً بعلوم العرب، ومعارفهم، وارتبطت بحركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية. غير أن الاتجاه اللاهوتي المتعصب الذي نظر إلى الإسلام بعداوة وكراهية وبغض، كان التيار الأقوى خلال العصور الوسطى. وقد مثله رجال الدين المسيحيون. هذه التشوهات التي لحقت بالإسلام وبشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، انتشرت بشكل كبير، وظلت موجودة منذ العصور الوسطى، ومازالت إلى اليوم منحوتة في مؤلفات عديدة؛ ومن أشهرها: رسالة عبد المسيح بن اسحاق الكندي إلى عبدالله بن إسماعيل الهاشمي- مؤرخة في 861م- ، يرد بها على رسالته منتقداً، ويدعوه فيها إلى اعتناق المسيحية، وقد قيل، فيما رُوي إن أمر الرسالتين بلغ الخليفة المأمون العباسي، فأمر بإحضارهما، وقُرئتا عليه معاً؛ فلم يزل مستمعاً ولم يَضْجَرْ، رغم ما تضمنته رسالة عبد المسيح من تشكيك في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الشرائع والأحكام القرآنية[1]. لقد تصدى علماء المسلمين، عبر التاريخ للرد على هذه الرسالة بالحجج والبراهين. والملاحظ أن ردود فعل المسلمين على هذه الرسائل وأمثالها، من الكتابات المسيئة للديانة الإسلامية في الماضي، لم تَرْقَ إلى الفعل العنيف، رغم وجودها المستمر. لذلك فإن ما يقع اليوم أمر جد مستغرب، فما نشرته

(1) أعيدت طباعة هذه الرسالة باستمرار، من قبل الأوساط المسيحية المتعصبة، خلال العصور الوسطى والحديثة، وتعتبر من الكتابات المؤسسة لوجهة نظر المستشرقين عن الإسلام. وقد نشرت جمعية ترقية المعارف المسيحية في لندن هذه المخطوطة عام 1885، من جديد. كما أعيد نشرها بالقاهرة عام 1912م، وما تتضمنه الرسالة يشكل المصدر الأساس للتصورات الغربية النمطية عن الإسلام اليوم، بما فيها الرسوم والأفلام المثيرة للضجة.

بعض الصحف، والجرائد الأوروبية، من رسوم كاريكاتورية عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أو ما جاء في الفيلم المسيء المثير للضجة، لا يعدوان أن يكونا، في مجملهما، سوى جزء بسيط مما تحتويه كتابات رجال الدين المسيحيين في القرون الوسطى، وبالخصوص ما جاء في رسالة عبد المسيح الكندي؛ فهي نماذج مستنسخة من الإساءات التي لم تختف أصلاً منذ القرون الوسطى وإلى الآن. فما الداعي لكل هذه الضجة التي تُثار اليوم حول قضية قديمة يتم إحياؤها كل مرة، هل المطلوب أن يظل المسلمون في احتجاج دائم مادامت الرسوم والأفلام المسيئة ستظل موجودة في العالم الافتراضي بشكل مستمر وأبدي؟ لقد توقفت الآن المواجهات والتشنجات التي ذكتها وسائل الإعلام بخصوص الفيلم المسيء. فهل هذا يعني أن الشيء الذي تَسَبَّبَ في هذه الاحتجاجات اختفى؟ أبداً، ماتزال الرسوم والفيديوهات منتشرة، وربما تناسلت بنسبة أكبر في فضاءات العالم الافتراضي الذي لا حدود له، لكن لماذا نسي الجميع فجأة، أمرها وكأنها أصبحت في خبر كان، مع أنها مستمرة في الوجود؟ لماذا لا يتم التعامل مع أخبار الإساءات للنبي صلى الله عليه وسلم أثناء بُروزها بالطريقة نفسها التي يتم التعامل بها مع الخبر بعد خموده وتلاشيه؟ أليس الاحتجاج الشعبي العنيف، على شيء تافه قديم، موجود أصلاً منذ أمد بعيد، يساهم في إعطائه قيمة أكبر مما يستحق؟ أليست هناك قضايا أخرى ذات أولوية، على وسائل الإعلام والمجتمعات في البلاد الإسلامية التركيز عليها؟ ألم تُحقق هذه الأعمال التافهة فنياً، والموجودة أصلاً من قبل، الشهرة والعالمية بسبب ردود أفعالنا؟ ألم تصبح هذه المنتوجات المبتذلة أكثر مشاهدة، لأننا ساهمنا من خلال سلوكنا في إثارة الانتباه إلى وجودها، وقد كانت موجودة أصلاً، لكنها كانت مغمورة في مناطق الظل بالإنترنت؟ إن هذه الأسئلة

بشأن الطريقة التي نتعامل بها مع الأحداث الاستفزازية، ستبقى مستمرة مادامت الذهنية التي تتحكم في عامة المسلمين على حالها، مما يعني أن ردود أفعالنا ستتكرر بالطريقة نفسها عندما سيتم إحياء هذه الإساءات الموجودة أصلاً في واقعنا، مستقبلاً؛ إذ هي لم تختف، لا في الماضي، ولا في الحاضر، وستظل موجودة دائماً معنا في المستقبل، فمتى إذن سنتحرر من أوهامنا؟[1]

لقد عرفت الفترة التاريخية المعاصرة فورة حدثانية، أحداثاً من قبيل الثورة الثقافية الصينية في 1966، وثورة ماي سنة 1968، والثورة الإيرانية سنة 1979، وانهيار المعسكر الشرقي سنة 1998. هذه الأحداث الكبرى فرضت نفسها على وسائل الإعلام، بالنظر إلى حجم آثارها، ونشهد اليوم، وبحدة أكبر من أي وقت مضى، الأحداث الآنية وهي تفرض سطوتها على المشاهدين. على سبيل المثال، حدث 11 شتنبر بالنظر إلى نتائجه، وأيضاً

(1) دافع عبد المسيح، عن المسيحية، وعن عقيدة التثليث، وحاول أن يثبت أن القرآن ليس وحياً من الله، وإنما هو تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، مدعياً أنه تعرف على النصرانية من الراهب بحيرى، وهذه القصة تعرضت للنقد في المصادر الإسلامية، ومؤداها أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في البداية تلميذاً للراهب النسطوري سرجيوس بحيرى، زاعمين أنه تلقى منه المعلومات الأساسية عن التوراة والإنجيل، وبعد ذلك أعلن نفسه نبياً، وكون عقيدة خاصة به، وبأتباعه. يتضح أن الروايات المسيحية جعلت الإسلام بدعة مسيحية، وأن محمداً رجل مرتد، ونبي مزيف، اخترع كتاباً هو القرآن، مزج فيه ما كُتب في العهدين القديم والجديد، وهذه كلها أقوال تعرضت للتشكيك من قبل علماء الإسلام القدامى، الذين خصصوا لها مؤلفات مستقلة، في إطار السجال الذي احتد آنذاك بين العالمين المسيحي والإسلامي. ومن أهم الردود التي تضمنتها هذه الكتابات: التساؤل بشأن الدوافع التي منعت بحيرى من تأليف القرآن لنفسه، فلماذا يمنح هذا الأخير مجداً لغيره؟ ولماذا لم تتهم قريش النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أخذ ذلك عن اليهود أو النصارى؟ كما أن هناك العديد من القصص المذكورة في القرآن الكريم غير موجودة في الكتب السماوية السابقة، مثل قصة زكريا، وولادة مريم، وكفالته لها، فمن أين أخذ هذا كله؟ وفي السِّيَاق ذاته حاول عدد من المستشرقين اعتماداً على كتاب عبد المسيح، الإساءة لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته الزوجية، وكذا التأكيد على أن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني، ومن قوانين الديانات السابقة، مع تحويرها بما يتوافق مع طبيعة العرب، وثقافتهم، وقد ظلت هذه القضايا نفسها تتكرر باستمرار، مع الاختلاف في الأساليب والطرق المتبعة، وقد ساهم التقدم الكبير لوسائل الإعلام والتكنولوجيا الرقمية في تضخيمها.

ثورات الربيع العربي التي لا تزال نتائجها غير واضحة إلى الآن، بالنظر إلى الشعارات، والآمـال المتحدث عنها قبل الثورة، مفارقات كثيرة ستحصل في المستقبل بهذه البلدان، التي لم تَرْس بعد على بر الأمان، وبالتأكيد لن تعرف الاستقرار على المدى القريب.

اغتصبت وسائل الإعـلام التاريخ، وجعلت من الحدث وحشاً، حسب تعبير بيـير نـورا. ليس لأنـه حسب تعريفـه يخرج عن العـادة المألوفـة، ولكن لأن التأثـيرات الداخلية للنظـام تؤول إلى إنتاج تأثـيرات حسية، صناعة دائمة للجديـد، تغذية جـوع الأحـداث. بالنسبة إلى هـذا المـؤرخ الفرنسي، ليس الحـدث العصـري سوى حدث وحشي؛ فنـزول الإنسان إلـى القمر، ورحيل دوغول، هي أحداث وحوش تكررت وستتكرر دائماً وبشكل دوري، لأن وسائل الإعلام تتعقب مثل هذه الأحداث، وسلطت عليها الأضواء.[1]

أعـادت وسائـل الإعلام للحـدث نضارتـه؛ فالحدث المعاصـر اكتسح هذه الوسائل بجميع أنواعها. إنه الديكتاتور الجديد الذي فرض نفسه بالقوة[2]؛ فالمواضيـع التي تُروَّجُ بـين الناس ليست سوى منتـوج إعلامي، فما تتحدث عنه وسائل الإعلام هو الموجود، وما لا تتحدث عنه لا وجود له. إنه شيء يتم تصنيعه في آلة إنتاج الخبر -من خلال انتقاء الأخبار والصور والشهادات- ليغدو العالم مفعولاً إعلامياً، يشتغل في أذهان الناس، ويَسِمُ ردود أفعالهم، ويُوّجـه أحكامهم، ويُشْبِـعُ رغبتهم وفضولهم؛ فما يُروِّجُـه الإعلام على أنه خبر مهم، هو ليس كذلك، إلا لأن الإعلام جعله كذلك؛ فالإخبار بالواقعة لا يخلـق الحدث فحسب، وإنما يحيله إلى كيان ذي معنى، بل هو يَخلق أهميته

---

(1) Pierre Nora. Le retour de l'événement. Faire de l'histoire. Nouveaux problèmes. Sous le directeur de jacques le Goff et Pierre Nora. Gallimard. p215.

(2) جان لاكوتور. التاريخ الآني. ص370/395.

كذلك، ويُسَوِّقُهُ في أذهان الناس، ويفرضه باعتباره كذلك؛ فما يتم تداوله من خلال الأخبار، يُصبح موضوعاً آنياً لأحاديث الناس.[1]

أصبحت حياتنا اليوم مشبعة بالأحداث، لتعدد وسائل الإعلام؛ فحسب دو سيرتو: (يملأ السرد على الدوام -منذ الصباح وحتى الليل- الشوارع والمباني، إنه يعرب عن وجودنا، وذلك بتعليمنا ما يجب أن يكون. إن السرد يغطي الحدث، أي أنه يصنع أساطيرنا (ما يجب أن يقرأ ويقال) من الحدث؛ فبمجرد استيقاظ المستمع تستحوذ عليه الإذاعة، ويغيب طوال اليوم في غابة من السرديات، من الصحافة، والإعلانات، إلى سرديات التلفزيون التي لا تزال تجد متسعاً من الوقت، وحتى يستعد الفرد للنوم، تُمَرِّرُ له رسائل نهائية قليلة تحت بوابات النوم).[2]

2 - وسائل الإعلام وصناعة الحدث

عقب الثورة المصرية، تداول المصريون نكتاً كثيرة، انتشرت على نطاق واسع، على الشبكة العنكبوتية. ومن أهمها النكتة التي تتحدث عن التقاء رؤساء مصر السابقين: جمال عبدالناصر، وأنور السادات، وحسني مبارك، بعد الموت، فسأل بعضهم بعضاً عن أسباب سقوطهم، أجاب عبدالناصر: سقطت (بالسم)، وقال السادات: سقطت (بالاغتيال)، أما مبارك، فأجاب: سقطت بسبب (القنوات التلفزيونية). ترمز هذه المزحة المصرية المتداولة، إلى الدور الفعال الذي قامت به وسائل الإعلام في نجاح الثورات العربية؛ فالعديد منها انخرط بشكل كامل، في تغطية حية ومباشرة للأحداث، من خلال التركيز على الحشود الكبيرة من الجماهير، التي

(1) - عبدالصمد الكباص. الحدث والحقيقة، م س. ص25، 26.

(2) آرثر اسا بيرغر. وسائل الإعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. م.س. ص157.

اندفعت إلى الشوارع، والساحات، مطالبة بتنحي الأنظمة الحاكمة عن السلطة؛ فتغطيتها المستمرة، وحماستها في نقل الأخبار، كانتا أشبه بالتعبئة منها لنقل المعلومات والوقائع المستجدة على الساحة. لقد شاهدنا توقف البرامج العادية بشكل نهائي، في العديد من القنوات الإخبارية المتخصصة، التي تحوّلت أستوديوهاتها إلى ورشات عمل تستقبل، على مدار كل ساعة، محللين سياسيين، وخبراء عسكريين، ومعارضين من الداخل والخارج، على الهواء مباشرة. كان الانتقال الفجائي والسريع من ثورة إلى أخرى، يتم بموازاة دينامية حيوية لوسائل الإعلام والتواصل الإلكتروني التي عززت من فرص نجاحها.

وسائل الإعلام هي التي تساهم في صناعة الأحداث اليوم، فلا أحد يتحدث عن القطارات رغم أنها موجودة بشكل دائم، ولا أحد يتنبه لها إلا عندما تحيد عن مساراتها، وكأنها غير موجودة أصلاً، إلا بعد أن تحيد عن سكتها. وكلما كان عدد القتلى كبيراً، كلما زادت مساحة تواجد القطارات في وسائل الإعلام. يمكن تعميم الحالة على وضعية الطائرات في العالم؛ فهي لا تَبْرُزُ للوجود إلا بعد اختطافها، وقد لاحظنا كيف تحول سقوط طائرة إلى حدث تاريخي عالمي، في ظروف معينة، وفي سياق خاص.

إن الإعلام ينتقي الأحداث، وقد يمارس الإقصاء المتعمد بشأن أحداث أخرى، قد تكون أكثر أهمية، وقد يقوم بتزييف الحقائق. وهو بهذا السلوك، إنما يستجيب لرغبات لوبيات الضغط التي تتحكم في سياسات القنوات، وخصوصاً القنوات المحتكرة من طرف القطاع العام. فعلى سبيل المثال، تلاعبت مؤخراً هيئة الإذاعة والتلفزيون الإيراني الرسمي في الترجمة الفارسية الفورية التي قامت بها لكلمة الرئيس المصري محمد مرسي الذي ألقاها، خلال أشغال الجلسة الافتتاحية للقمة السادسة عشرة لحركة عدم

الانحياز، المنعقدة في العاصمة طهران. وقد تم هذا التحريف، ليتطابق الموقف المصري مع سياسة النظام الإيراني تجاه القضايا الخارجية، وبالخصوص حول الموقف من الأزمة السورية. ولذلك تَعَمَّد المترجم بالقناة التلفزيونية الإيرانية، خلال ترجمته الفورية، إلى تغيير مفردة سوريا الواردة في خطاب مرسي، إلى البحرين كلما ورد ذكرها، علماً أن الرئيس المصري لم ينطق اسم بلد البحرين في كلمته أصلاً، الأمر الذي أثَّر بشكل كبير على مضمون كلمته، كما قام أيضاً بحذف ذكر أسماء الخلفاء الراشدين أبي بكر، وعمر، وعثمان، من مقدمة خطابه، وكانت معظم النقاط التي جرى فيها تحريف خطاب الرئيس المصري، تتعلق بالملف السوري؛ فعندما نطق مرسي بعبارة: (إن الشعبين الفلسطيني والسوري، يناضلان من أجل الحرية، والعدالة، والكرامة)، سمعها الإيرانيون على تلفزيونهم كالتالي: (إن شَعْبَيّ فلسطين والبحرين، يناضلان من أجل الحرية)، وعندما ذكر مرسي تسلسل الثورات العربية، بدءاً من تونس، ومروراً بمصر، وليبيا، واليمن، وانتهاء بسوريا، غَيَّر المترجم بلد سوريا إلى البحرين، وبينما انتقدت كلمته النظام السوري بشكل صريح، ووصفته بالنظام الظالم، كانت الترجمة الإيرانية الفورية على لسان مرسي تقول: هناك أزمة في سوريا، وعلينا جميعاً أن ندعم النظام الحاكم فيها، وينبغي أن تُستأنف الإصلاحات في سوريا، ونمنع أي تدخل أجنبي بها. وهذا تحوير وقلب للمعاني بشكل كامل. هذا تزوير لخطاب رئيس دولة ألقاه بشكل علني، وبثته القنوات بشكل مباشر؛ فخطاب مرسي الدّاعم للثورة السورية، وبفعل التحريف الذي طاله، بدا للإيرانيين في الداخل وكأنه خطاب داعم للمعارضة في البحرين. ولم تكن كلمة مرسى هي الوحيدة التي تم تحريفها، بل تم تحريف خطاب كل من الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون، ورئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة حول

الأزمـة السورية. وقد اعترضت البحرين، بقوة، على هذا التحريف المتعمد، الـذي طالها بالاسم، وقامـت باستدعاء القائم بأعمـال السفارية الإيرانية لديهـا للاحتجاج علـى ما بثته القنـاة التلفزيونيـة الرسميـة أثناء خطاب الرئيـس المصـري محمد مرسـي، بقمة عـدم الانحياز، وقالـت الخارجية البحرينيـة إن وضع اسم البحرين محـل سوريا خلال الخطاب، يُعد تزويراً إعلاميـاً مرفوضاً، وخروجاً عـن القواعد المتعارف عليهـا، وهو تدخل غير مبرر في الشؤون الداخلية لمملكة البحرين، مُطالبة إيران بالاعتذار عن هذا التصرف، واتخاذ الإجراءات اللازمة في حق المتلاعبين بالترجمة.

إن وسائـل الإعـلام إذن لها القدرة على تزييف الحقائـق، وباستطاعتها نشر الإشاعـات، واختراع الروايات الخرافيـة أيضاً. فأسطورة مثلـث برمودا التي انتشـرت، كالنـار في الهشيم، بعـد حادثة الاختفاء الشهـيرة لطائرات الرحلة 19 في الخامسـ مـن دجنبر سنة 1945، خير مثال علـى ذلك. وتتلخص قصة هـذه الواقعة في إقلاع خمس طائرات تابعة للبحريـة الأمريكية في ذلك اليوم، وعلـى متنها 27 طياراً، وهي واحدة من الطلعات الروتينية التدريبية التي يقوم بهـا سلاح الجو من حين لآخر، وبسبب تأخر عودتهـا، صدرت الأوامر بإرسال طائـرات استطلاع بحثاً عن سرب الطائرات الخمس المفقودة، لكن واحدة من تلك الطائرات، بدورها، اختفت وعلى متنها 13 رجلاً دون أن تُخلف أثراً يُذكر.

انتشـرت شائعات كثيرة بشأن الحـادث، والحوادث اللاحقة، بهذه المنطقة المحيطية، وبفضل دور وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية، تحولت قصة برمودا إلـى رواية خرافية شبيهة بالأساطير الخياليـة للإغريق عن صراع الأبطال والآلهـة. في حـين، لا يعدو الأمر أن يكـون في حقيقته سـوى أحداث عادية، تحولت إلى سيناريوهات تضليل ودعاية؛ فقد تَمَّ تقديم معلومات وتفسيرات خاطئـة لأقوال وشهـادات ليس لها أي أساس، كمـا ضُخِّمت روايات الشهود

التـي تعرضت بدورها للتلاعب من قبل وسائـل الإعلام المكتوبة، وبالأخص المجلات القصصية التي لا تستند إلى مصادر موثوقة.

اقترحت عدّة كتب تفسيرات متعددة، وأحياناً خرافية، للحوادث التي وقعت بالمنطقة، كان الهدف من ذلك بيع أكبر عدد من الكتب لتحقيق الربح؛ حيث كان البيـع يزداد بازدياد غرابـة التعليلات المقدمة للاختفـاءات. وفي سنة 1975، قـام لاري كوشيـه، عامل مكتبـة في جامعة ولاية آريزونـا، بالتحرّي حول الادّعاءات الموجودة في المقالات والكتب، وأثبت من خلال بحثه وتنقيبه العميـق في السجلات التي أهملها الآخرون، أن معظم الحوادث التي وُصفت بكونهـا غريبـة، لم تكن غريبـة كما أشيع؛ فمـا ذكره أغلـب المؤلفين الذين تحدثـوا عن اختفـاء بعض السفن، والطائـرات، في هذه المنطقـة، رغم أن البحـر كان هادئـاً، يتعارض بشكل جـذري مع سجلات خفـر السواحل في المثلـث، والتي تشير إلى وجود عواصـف عاتية كانت تضرب منطقة الحادثة آنـذاك، وحتى عندمـا زعمت بعض الروايـات أن السفن اختفـت بصورة غامضـة، ولم تظهر، نجد أنهـا خلفت بالفعل بقايا، وأجـزاء منها، وقد تم التعرف على سبب الغرق.

معظـم التقارير والإحصائيات التي تناولتهـا سجلات الحوادث بالمثلث، من طرف خفر السواحل الأمريكية، تؤكد الحالة الطبيعية والعادية للأحداث التي وقعـت. ومنذ ذلك الوقت، بدأ يختفي لغز مثلث برمودا من الساحة بالطّريقة نفسهـا التـي اختفى بهـا العديد مـن ضحايـاه المفترضين؛ فأغلـب البرامج الوثائقيـة والتحقيقيـة التـي أنجـزت، أكدت مؤخـراً زيف الكثـير مما قيل، وتم الاعـتراف بأن الأحداث تم تفسيرها وتأويلهـا بصورة خاطئة، واعترفت العديد من الوكالات الرسمية بالأخطاء التي قدمتها فيما يتعلق بعدد وطبيعة الاختفـاءات، في مثلـث برمـودا، أثناء مقارنتهـا بغيرها من الحـوادث التي

تحصــل في باقي المحيطــات والبحار[1]. طبعاً لم تختف لحــد الآن، من الكتب وبعضــ الأفلام الوثائقيــة، المخاطر المزعومة بمنطقة برمــودا؛ فبالرغم من كــون هذا المثلث لا يُمثل أي لغز حقيقي، فإن هــذه المنطقة من البحر كان لها نصيبهــا بالتأكيد مــن المآسي البحرية العادية التــي ذكرتها الكتب، مثلها في ذلــك مثل باقي المناطق الأخرى من بقاع العالم. فما أُثير حول هذا المثلث من رعــب، فيه مبالغات ومغالطات كثيرة، تدحضها إحصائيات دقيقة، تشير إلى أن عــدد الحوادث التي وقعــت في مناطق أخرى من المحيطات، تفوق بكثير ما وقــع في منطقة برمــودا. وعليه فالتفسير الذي نقدمــه لانتشار عدد كبير من الكتــب الأسطورية التي تغلــف نفسها بغلاف العلم، كذبــاً وزوراً، في الأسواق والمكتبات، والإقبال الكبير من عامة النـاس على هذا النوع، نعزوه إلى الثقافة المتواضعــة والمحدودة لهؤلاء، والتــي تنحو إلى تصديــق الخرافات، والإيمان بالخــوارق. فقد حَقَّقَ على سبيل المثال، كتاب مثلــث برمودا، لمؤلفه الأمريكي تشارلــز بيرلتز، رواجاً كبــيراً؛ إذ وُزِّعت منه في أشهــر قليلة أكثر من خمسة ملايين نسخة. ويعود سبب رواج الكتاب، إلى احتوائه على حكايا غريبة لقوى خفية، وتفســيرات محيرة لظواهر اختفــاء الطائرات، والسفــن، ومن عليها دون أن تترك أثراً[2]. وقد عاد إلى الواجهة مؤخراً، موضوع الأطباق الطائرة، والكائنــات الفضائيــة، ليفرض نفســه من جديد على وسائــل الإعلام، وهذه المــرة في روسيــا؛ فقد ادعت بعض الصحف، بــأن النيزك الذي ضرب مدينة (تشيليابينســك) يــوم 2013/02/15، بمنطقــة جبــال الأورال، تم تفجــيره

(1) قدمت مؤسسة لويذز للمعلومات بلندن، وإدارة حرس السواحل الأمريكية، تقارير، توضح حجم التضليل والتضخيــم الذي واكب الأحــداث المأساوية التي وقعت بمنطقة برمودا، وهــي جهات موثوق بمعلوماتها وإحصاءاتها.

(2) للمزيــد حول خرافــة برمودا يراجع: عبدالمنعم صالح. الإنسان بين العلــم والخرافة. كتاب سلسلة عالم المعرفة، عدد 235، الفصل الثامن: مثلث الموت أو مثلث برمودا. من ص203-220.

بواسطـة مخلوق فضائـي مجهول، وذلك قبـل أن يهوي علـى الأرض؛ فتكون هـذه الكائنات، حسب هذه الأخبار، هي من أنقذت الروس من كارثة مدمرة، وقـد تم بث مقطع فيديو انتشر بشـكل واسع على موقع يوتيوب، يكشف لحظة انفجار النيـزك بواسطة الكائن الفضائي المفترض، قبل أن يتابع، بعد ذلك، مساره مبتعداً، وقد تداول الناس إشاعات كثيرة بشأن مشاهدة الناس طبقين طائريـن في السماء، فـوق قرية قريبة من منطقة الحـادث، في اليوم السابق لسقوط النيزك.[1]

تعتـبر وسائل الإعلام حالياً، الفضاء الأمثل لنقـل التاريخ الآني؛ فهي التي اخترعـت -منذ بروز الصحافة في القرن التاسـع عشر- النبأ الراهن، كما حـددت للصحافيين رسالتهم في الإخبار (بـما يجري)، أو بالأحرى (لما قد جـرى) و(لِمَا سَيَجْرِي) عمـا قريب[2]. ومنذ ذلك التاريـخ، أصبحت وسائل الإعـلام فاعلة وشاهدة في الوقت نفسه؛ فقد جعلت الحدث أكثر جماهيرية وديموقراطيـة. لذلك ربط بيير نورا بينها وبين الأحـداث، فالعلاقة بينهما تبدو قوية وشديدة إلى درجة تبدو معها غير قابلة للانفصال؛ فالأخبار هي مـن اختراع الصحافـة اليومية في البداية، وبروز الحـدث المعاصر في زمن المجتمعات الصناعية، يعود إليها؛ ففي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، صنعت قضيـة درايفوس الشهيرة حدثاً هز الجمهورية الفرنسية، وأدى إلى انقسـام كبير بين فئات المجتمع الفرنسي، سنـة [3]1894. هذه القضية التي

(1) يعـود موضـوع الأطباق الطائـرة إلى فترة الحرب البـاردة؛ فقد انتشرت إشاعـات في أماكن كثيرة من الولايات المتحدة، وأوروبـا، وآسيا، بشأن مشاهدتها، وأعطيت لها تفسيرات متناقضة، وقد ألهمت هذه القصص مخرجي أفلام الخيـال العلمي ليتخذوا من أحداثها مواضيـع لأفلامهم، وقد حققت أغلبها نسب مشاهدة عالية.

(2) فرانسيس بال. الميديا. م، س، ص15.

(3) الفريـد درايفوس قبطان فرنسي من أصل يهودي اتهـم بتسليم معلومات عسكرية إلـى ألمانيا، فحوكم ونفي إلى بعض جزر المستعمرات، فقامت ضجة كبيرة بين المدافعين عن براءته والمنددين به، واستمرت القضية مثار جدال لمدة 12 عاماً.

شغلت الرأي العام الفرنسي أخذت كل شيء من الإعلام، وأعطته كل شيء؛ فقد تزامنت مع صعود قوة تأثير الصحافة المكتوبة. ومثلما خلقت قضية درايفوس، الذي اتهم بالخيانة والعمالة للألمان، ضجة في الوسط السياسي، والثقافي الفرنسي، احتلت، قبل سنوات من الآن، أطوار محاكمة عمر الرداد اهتماماً مشابهاً، في وسائل الإعلام الحديثة؛ فقد خصصت لها الجرائد والمجلات الفرنسية الصفحات الأولى، وتابعتها بكثافة القنوات التلفزيونية، وتدخلت دور النشر على الخط، فصدرت كتب منقسمة بشأن المحاكمة، فهناك من عده مجرماً، وهناك من دافع بقوة عن براءته، بل هناك من ذهب إلى وصف محاكمته بالعنصرية، وهو الرأي الذي عبر عنه صراحة، المحامي الشهير (جاك فيرجيس)، في إحدى مرافعاته الدفاعية عن المتهم؛ إذ قارن بين محاكمة البستاني عمر الرداد والضابط ألفريد درايفوس قائلاً: (أُدينَ الأول لأنه يهودي، ويُدان الثاني لأنه عربي). ورغم أن هذا الأخير تم العفو عنه بقرار رئاسي، بعد سبع سنوات قضاها في السجن من محكوميته البالغة ثماني عشرة سنة، فإن هذه القضية لم تنته بعد؛ فقد طالب عمر الرداد، ومعه الكثير من المثقفين الفرنسيين، وعلى رأسهم: الأكاديمي جان ماري روارت (أصدر كتاباً في الموضوع)، بإعادة المحاكمة. هذا الحدث عاد إلى الواجهة من جديد، بعد أن تحول إلى عمل سينمائي شهير، بعنوان: (عمر قتلني)، وهي العبارة التي وُجدت مكتوبة بالدم، وباللغة الفرنسية، إلى جانب جثة الضحية. فهل ستنجح كل هذه الجهود في تهيئة الرأي العام الفرنسي لقبول إعادة محاكمة عمر الرداد مرة أخرى، كما نجحت في السابق جهود المثقفين الذين التفوا حول الضابط درايفوس، وطالبوا بفتح تحقيق جديد في قضيته؟[1]

(1) من أشهر المثقفين الذين دافعوا عن ألفريد درايفوس، الكاتب والروائي والصحافي إيميل زولا (1840

أصبح الحدث اليوم معاشاً، بفضل التطور الهائل الذي عرفته وسائل الاتصال؛ فسرعة انتشار وإعادة انتشار الأحداث، من الأسباب التي ساهمت في تحولات الحدث. لقد تضاعفت وتيرة صناعة الأحداث في زمن وسائل الإعلام إلى درجة كبيرة؛ فهي لا تكف عن إنتاج واستهلاك الحدث. ومع ذلك، فإن ما تَعْرِضُه هذه الوسائل، من المعلومات والتعليقات والمناقشات والوثائق والشهادات، لا تستطيع أن تفك الغموض الذي يظل محيطاً بالحدث، والذي لا يُعْطَ أبداً في حقيقته العارية، وإنما يتم إنتاجه خلف الكواليس؛ فليس للحدث معنى داخل الفراغ. وبالتأكيد وراء الصورة الظاهرة، تختفي عمليات التحويل والتركيب. لذلك ينبغي تحديد الإطارات التي تعطيه معنى، سواء بالنسبة إلى علماء الاجتماع، أو الإنتربولوجيين، أو المؤرخين. فهذه المقاربة يُمكن أن تُزيح حقيقة الحدث، بتوضيح طرق تكوينه، إذ قد يكون فقط نتيجة اختراع، أو على الأقل مشكوكاً فيه؛ فوسائل الاعلام تظل جزءاً لا يتجزأ من الحدث، ومن الواقع الحقيقي، وقد تؤدي دورها في هذا الاتجاه أو ذاك، إذ بإمكاننا أن نتحدث اليوم عن توتاليتارية الإعلام[1]؛ فالذين يمتلكونها ويحتكرون رأسمالها، قد يتلاعبون بالحدث،

– 1902)، الذي نشر مقاله الشهير: (إني اتهم)، في صحيفة (فجر) الأورور l'Aurore، منددا بالقضاء الفرنسي الذي أقر حكم الإدانة على درايفوس. وقد وَقَّعَ إلى جانب متضامنين آخرين، منهم كبار الكتاب، أمثال: أناتول فرانس، ومارسيل بروست، وليون بلوم، بياناً حمل اسم (بيان المثقفين)؛ فلم يكن أمام الحكومة إلا الإذعان لإعادة محاكمته سنة 1898م، لكنه لم يحصل على البراءة بصفة نهائية إلا سنة 1902، عندما قررت محكمة النقض ذلك، وأمرت بعودته إلى عمله السابق، وقد رُقِّيَ بعد ذلك إلى رتبة مقدم، كما شارك إلى جانب القوات الفرنسية في الحرب العالمية الأولى (1914–1918). وبخصوص لفظة كلمة المثقفين، يراجع: علي اومليل. السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2011، ص248/ دومينيك اوفروا. ابن رشد طموحات مثقف مسلم. مراجعة سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى، 2011، ص17، 18/ جيرار ليكلرك. سوسيولوجيا المثقفين. ترجمة جورج كتوراه، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008، ص 11، 23، 24.

(1) عبدالسلام بنعبد (تكريساً للانفصال). ضمن. ضد الراهن، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2005م، ص7.

كمـا تتلاعب الشركات العملاقة –عـبر المضاربة– بأسهم البورصات. نجد أمثلـة كثـيرة لأخبار تناولتها وسائـل الإعلام، بكثرة لكنهـا لم تصدق، من قِبَـلِ الأكثريـة، في العالم؛ فعلى سبيـل الذكر، نُشير إلـى الرِّوَاية الأَمريكية المتعلقة بنزول الإنسـان إلى القمر؛ فالبعض يعتقد بأن الصور التي عُرضت على شاشات التلفزيون، هي صور تمت فبركتها في الأستوديوهات الإعلامية للمخابـرات الأمريكية، بصحـراء نيفادا، مدفوعة في ذلـك، بقوة الصراع خـلال فترة الحـرب البـاردة. فالتسابـق المحموم، بـين الولايـات المتحدة والاتحـاد السوفياتي، على غـزو الفضاء في ما سمي (بحرب النجوم)، قُدِّمَ كأحـد العوامل الأساسية التـي أدت إلى ادعاء الأمريكيين نجاحهم في وطء سطح القمر. هذا التشكيك في صحة نزول الإنسان على سطح القمر، بدأت حدتـه تتزايد في الآونة الأخيرة؛ فقد عاد هـذا النقاش مجدداً إلى الساحة الإعلامية، وقـد شَكَّلت وفاة نيل ارمسترونغ –قائـد رحلة المركبة الفضائية ابوللـو–11 في 25 غشـت 2012، مناسبـة لإعادة طرح التسـاؤل حول مدى حقيقة هذا النـزول، وممن تعرض للموضوع مؤخراً، قنـاة فوكس الألمانية، التـي عرضت مجموعة من الحجج والقرائن المضادة، من أبرزها، أن نزولاً ثانياً على القمر لم يقع لحد الآن، مع أن منطق الأشياء يؤكد أن من اكتشف بقعـة ما، ووصل إليها، يسهل عليـه القيام بذلك مرة أخرى؛ فما الذي يمنع الأمريكيـين حتى الآن من القيام بعملية إنزال ثان على القمر، وعرضه على القنـوات بشكل مباشر؟ مع العلـم أن النزول الثاني أمر أيسر، إذا ما قارناه بالنـزول الأول، وخصوصـاً إذا استحضرنـا التقدم الحاصـل على المستوى التكنولوجـي. ومما يُشَكِّكُ في الرواية الأمريكيـة، أيضاً ظهور رواد الفضاء لـدى عودتهم من رحلتهم، وكأنهـم كانوا في رحلة استجمـام ممتعة؛ إذ لم يبـدُ على ملامحهـم أي أثر تدل على التعب والانهـاك المفترض، وقد شكك

الفوتوغرافيــون بدورهم، في الصــور التي تم بثها، من خــلال التركيز على تناقضاتها؛ فالتفاوت واضح حسب ملاحظاتهم الدقيقة، في طول الظل بين رُوَّادِيّ الفضــاء على سطــح القمر، وتُظهر الصــور المعروضة تطاير الغبار، ورفرفة العلم، مما شكك في مدى صدقيتها.

ستظــل قصة هبوط الإنسان على سطــح القمر لغزاً غامضاً، ومحيراً؛ وإذا كان أرمسترونــغ قد توفي، فإن السر لن يدفن معه إلى الأبد؛ فمازال العديد من العاملين في وكالة ناسا، ممن اشتركوا في المشروع على قيد الحياة، وقد يقــوم بعضهــم في المستقبل بالتطــرق إلى الحدث، وروايــة حقيقة ما جرى، في ذلــك اليــوم، مع العلم أن هــذا الأمر صعب التحقق، بالنظــر إلى طبيعة القوانــين الأمريكية، التي تمنع الكشف عن كل ما يدخل ضمن أسرار الأمن القومــي الأمريكي. ولعل ما يزكي التشكيك في الروايات الأمريكية، تضارب الأنباء والروايات، مؤخراً، مِن قِبل الساسة الأمريكيين، وقادتها العسكريين، بشأن طريقة إلقاء القبض على الرئيس العراقي صدام حسين، والأمر نفسه تَكَرَّرَ بشأن الطريقة التي قُتِلَ بها زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن.[1]

يواكــب الغموضــ دائماً الأحــداث العسكريــة والأمنية، ســواء في الولايات المتحــدة الأمريكيــة، أو في غيرها مــن البلدان؛ فقد واكــب الغموض حادث السير الــذي أودى، سنة 1960، بحياة الكاتب الفرنسي الشهير ألبير كامو، ثاني أصغر كاتب حاصل على جائزة نوبل في الآداب[2]؛ فقد توجهت الشكوك

(1) في الكتــاب الــذي صدر حديثاً، عــن دار النشر، دوتن ادولــت. يتناول مارك اوين، وكيفــن مور (اسمانٍ مستعــاران لفرديــن من القوات الخاصة شاركا في عمليــة ابوت أباد بباكستــان) في كتابهما: ليس يوماً سهــلاً: الرواية المباشرة للمهمة التي قتلت أسامة بن لادن، تفاصيل أسرار مقتل زعيم تنظيم القاعدة. ويتضمن الكتاب معلومات مغايرة بشكل صارخ لما تضمنته الرواية الرسمية الأمريكية.

(2) في الرابع من يناير 1960، بينما كان من المتوقع أن يعود كامو من لورمان إلى باريس عبر القطار، اقترح عليــه صديقه غاليمار استعمــال سيارته، وعلى بُعد ما يقرب من مائة كيلومــتر من العاصمة، ولأسباب مجهولــة، حادث السيارة عن الطريــق، ومات ألبير كامو على الفور. راجع مقــال: جان فرانسوا دوفن. (ألبير كامو المتمرد ضد العبث). ترجمة محمد الجرطي، مجلة الرافد، عدد أبريل 2013، ص36.

مؤخراً نحو اتهام جهاز المخابرات السوفياتي، خصوصاً بعد أن كشفت بعض المجلات، استناداً إلى شهادات شفوية، أن هذا الحادث كان بتدبير عناصر سوفياتيـة، انزعجت من مواقف كامو المعاديـة لسياسة الاتحاد السوفياتي، في أوروبـا الشرقية[1]. وكان هـذا الأخير بالفعل قد استنكـر إرسال موسكو قواتهـا لقمع انتفاضـة المجر عام 1956، كما انتقد القمـع الدموي الروسي للثورات المطالبة بالحريات في برلين الشرقية، عام 1953.[2]

بالنسبـة إلى الفيلسـوف جيل دولوز، تظل الأحداث مثاليـة. وهذا يعني أن التمييـز لا يتم بين نموذجين مـن الأحداث، بل بين الحدث بطبيعته المثالية، وتجلياته الزمكانية.[3]

لقـد شهدنا في الراهن عدداً كبيراً من الأحداث العالمية العنيفة: من حرب أفغانستـان، إلى حرب الخليج الثانية، إلى الثورات العربية، وما أفضت إليه مـن فـرار بن علي من تونس، ورحيل علي عبـد الله صالح عن اليمن، ومقتل معمـر القذافي في ليبيا، ومحاكمة حسني مبـارك في مصر، ومازلنا نشاهد الأحـداث العنيفـة وهي تقـع في سوريا على القنـوات الفضائيـة، ويحق لنا التسـاؤل عما إذا كان بالإمكان، مثلاً أن تنجح الثورات العربية، لولا الزخم الإعلامـي الكبير الذي فرضته علـى الأحداث القنـوات الفضائية، ومواقع التواصل الاجتماعي.

---

(1) في الوقـت الذي اقترب فيه بول سارتر أكـثر من الاتحاد السوفياتي، كره ألبير كامو الروس، على الرغم مـن أنه لم يكن يحب الولايـات المتحدة الأمريكية. راجع: رونالد ارونسون. كامي وسارتر، ترجمة شوقي جلال، كتاب عالم المعرفة، عدد 334، دجنبر 2006، ص289.

(2) تظـل العديـد مـن الاغتيالات السياسيـة، التي تقف وراءها أجهـزة المخابرات غامضـة، بسبب السرية التـي تُحاط بها ففي غياب الشواهد والمستندات والوثائق، في هـذه القضايا، يصعب إجراء التحقيقات القضائية بشأنها؛ ويمكن هنا الإشارة إلى قضية المهدي بنبركة، الذي اختفى في ظروف غامضة شمال فرنسا، يوم 29 أكتوبر 1965، وقضية رفيق الحريري، الذي اغتيل في بلده لبنان، يوم 14 فبراير 2005.

(3) Alban Bensa et Eric Fassin. Les sciences sociales face à l'événement. Terrain. Revues. Org.2002.p34/.

إن التغيرات المعاصرة، هي التي ساهمت في التجسيد الجديد للحدث. ومن خلال إلقاء الضوء علـى تقاربات وسائل الإعلام والأحداث، نجد أنها قوية إلـى درجة غـير قابلة للانفصال؛ فالتاريـخ أصبح آنياً، بفضـل دور وسائل الإعـلام المتعـددة التي أصبحـت جزءاً لا يتجزأ مـن الواقع، فَبِهَـا وعَبْرَهَا يُواجهنا الحدث، ونجد نماذج كثيرة من الوقائع تستحوذ على اهتمام وسائل الإعـلام؛ فالعديـد من الأحداث ارتبطـت في أذهان النـاس بالصورة، من قبيل نزول الإنسان على القمر. وهناك أحداث ارتبطت في السابق بالراديو؛ فهـذا الجهـاز استطاع تغيير قواعـد اللعبة في مجال الدعايـة، خلال بضع سنـوات قليلة من ظهوره، فمعه حل المباشر محل المؤجل، وقد فرض -نفسه علـى هذا الأساس- بقوة خلال الحرب العالميـة الأولى، باعتباره أول وسيلة اتصـال صوتية في متناول الجميع. ففي العـام 1920، كان بإمكان 50.000 ملتقط أمريكي متابعـة الحملة الرئاسية على الراديو لأول مرة[1]. وبالنسبة إلى بلد كالكونغو، وإلى حدود سنوات الخمسينات، كان كافياً لرجل دولة بها أن يكون في مستوى القول، على الموجات، أنه أخذ السيطرة على الحكم، لكي يصبح النظام في حوزته فعلاً.[2]

دخـل الراديو خلال الحـرب العالمية الأولى التاريخ كوسيلـة اتصال فعالة، وقد تجلت أهميتـه في كونه يرسل الرسائل في اللحظة ذاتها التي تُبَثُّ فيها، دون فـارق زمني، وتصل هـذه الرسائل -عبر الموجـات- في اللحظة نفسها إلـى الجميـع أينمـا كانوا. وقـد ظـل الراديو فعـالاً خلال الحـرب العالمية الثانيـة؛ فعبره بث الجنرال دوغول رسالته إلى الشعب الفرنسي سنة 1940 بخصوص خيـاره الاستمرار في المقاومـة. ولم يتراجـع دور الراديو، إلا مع

---

(1) فرانسيس بال، الميديا.م، س، ص32.

(2) Pierre Nora. Le retour de l'événement. op.cit.

ظهــور التلفزيون في أواخــر الخمسينات من القــرن العشرين، حيث سحب البســاط من تحت أقدامه. وتعتــبر حرب الفيتنام أول حرب تدور أمام آلات التصويــر التلفزيونية في التاريــخ، وكان تأثيرها في الرأي الأمريكي والعالمي تأثــيراً عميقاً. لقد أظهرت الصور التلفزيونية المرعبة مدى فظاعة الأعمال الوحشيــة الأمريكيــة المرتكبة، من حــرق الرهبان، وقتل الأطفــال والنساء بقنابل النابالم الحارقة، الممزوجة بمادة الفوسفور الأبيض، وإعدام مقاتلي الفيتكــونج في الساحــات العمومية، وهــدم وتخريب البيــوت والقرى بشكل كامــل. وظهرت صور أكثر وحشية عن مذبحة مــي لاي[1]. كما تسربت صور جثث القتلى من الجنود الأمريكيين في ميدان المعارك، ولذلك فإنه ليس من المبالغــة القــول: إن التلفزيون لعب دوراً أساسيــاً، في التسبب في أول هزيمة عسكرية بالغة الأثر في التاريخ الأمريكي؛ فقد قُدِّر للهجوم الذي شنه الثوار الفيتناميــون، المعروف باسم هجوم تيت، بين 29 يناير و25 فبراير من عام 1968، أن يكــون نقطــة تحــول حاسمة في الحــرب الفيتناميــة؛ فقد اكتسح المهاجمون أكثر من تسعين موقعاً للقوات الأمريكية وقوات فيتنام الجنوبية، وأوقعوا بهم خسائر كبيرة في الأرواح. وقد عكست التغطية الإعلامية مقدار التضليــل الإعلامي الذي مارستــه الحكومة الأمريكيــة في فيتنام؛ فالصور التلفزيونيــة للهجوم عكست شيئــاً مختلفاً عن الروايــة الرسمية التي كانت تــروج لفكرة الانتصار والنجاح في الحــرب. إن صور مقاتلي الفيتكونج وهم يقتحمــون السفارة الأمريكية في سايجون، وتزايد القتلى في صفوف الجيش

(1) مجــزرة مي لاي: مجزرة ارتكبها الجنود الأمريكيــون في فيتنام؛ فقد قام الملازم الأمريكي ويليام كايلي صحبــة كتيبته بتطويق قرية ماي لاي صبيحة يــوم 16 مارس 1968، وأمر بإحراق المنازل وقتل السكان العزل، وقد أثارت صور ضحايا المجزرة، التي انكشفت بعد عام من حدوثها، موجة استنكار دولية، وقد عاقبــت محكمــة عسكرية ويليام كايلي بالسجن المؤبد سنــة 1969. غير أنه خرج من المعتقل بعد خمس سنوات بعفو من الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون.

الأمريكـي، أفقد الرئيس جونسون تأييد الشارع، وانتهى الأمر إلى انسحاب القـوات الأمريكية من المستنقـع الفيتنامي سنـة 1975، بسبب احتجاجات الشارع، ومعارضة الرأي العام.[1]

يتعقـب الإعـلام الأحـداث، ويسلط الأضـواء عليها؛ فبراكين مـن الأخبار تتكرر بشكل دوري. وبالنسبة إلى المؤرخ بيير نورا، وسائل الإعلام اغتصبت التاريـخ وجعلت الحـدث وحشاً، لأنها تفرضـ علينا، يوميـاً عناوين تصنع منها أحداثاً وقبل أن تنقلها إلى الجمهور، يُخضعها رجال الإعلام للتنسيق، وإعادة التأهيل، والتوضيب، والتصميم، مما يفرض علينا مزيداً من الشك والريبـة؛ إذ الجمهور المتلقـي لا يميز هنا بين الحدث الكبـير الذي يفرض نفسه، وبين الحدث الميت الذي يأتي كعنصر مشوش.

لوسائـل الإعـلام قـدرة رهيبـة على قلب الحقائـق، وهي متهمـة في بعض القضايـا بالمغالطة، وتشويـه الحقيقة، التي هي مفقـودة، أو مخفية، بشكل مقصـود. نحـن نشاهد الحـدث يمر بطـرق مختلفة، حسب خلفيـة وسائل الإعـلام وحسـب مـا يريـده المجتمـع[2]؛ فالأمر في جوهـره أشبـه ما يكون بالطريقـة التي تناول بها ميشال دو سيرتـو مصطلح صناعة التاريخ، حيث اعتـبر الحـدث ينبع مـن فعل، مـن صناعة، فهـل نحن أمـام عملية فبركة للحدث في وسائل الإعلام الحديثة؟

لقد أصبحت المحطات الإخبارية، المختصة في صناعة الخبر، وبالخصوص

(1) خسـر الأمريكيون الحرب الدعائية في الفيتنام، ولم يستطيعوا استيعاب الهزيمة، وهو ما يعكسه طوفان الأفلام التي أنتجتها هوليود حول هذا الموضوع ونخص بالذكر أفلام رامبو. انظر: فيليب تايلور. قصف العقـول: الدعاية للحرب منذ العـالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة سامـي خشبة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 256، أبريل 2000، من ص366 إلى ص371.

(2) يتلاشـى الحـدث بشكل فوري بعد وقوعـه الفعلي ويتشتت، وما يُصنع عنه مـن أخبار في وسائل الإعلام بمختلـف أنواعها يتسم بالضرورة بالتناقض، لأن الحدث الذي وقع فعلاً لا أحد يعرف عن كنهه شيئاً، لأنه لم يعد موجوداً، وكل المحاولات التي تتناوله بالدراسة إنما هي عمليات استرجاع وبناء جديدة.

المرئيــة منهــا، على امتــداد العــالم، بالإضافــة الــى وسائــط التكنولوجيا الجديــدة الأخرى التي انطلقت بعنفوان عــبر الإنترنت، من مواقع التواصل الاجتماعــي، وخصوصاً الفيس بوك، وتويــتر، واليوتيوب، ركائز أساسية في صناعة الحدث؛ فقدرة وسائل الإعلام على التأثير في توجيه الأحداث خلال المرحلة الراهنة أمر واقع.

الحــدث العصــري هــو في الحقيقة لا شيء بــدون الحامــل التواصلي: (أنا موجــود، لأن الآخر يراني). وهــذه العبارة تم تحويرها مــن مقولة ديكارت الشهــيرة: (أنــا افكر إذن أنا موجــود). ويكفي تقديم المثــال التالي لتتضح الصــورة أكــثر؛ فقــد قام احتجــاج للطلبة في إحــدى الجامعــات الفرنسية سنــة2007 دام مدة طويلــة. ومهما كانت دوافع وأهــداف الطلبة المحتجين مــن حركتهم؛ فالمؤسســة الجامعية توقفت بهــا الدراسة لعــدة أشهر. لكن هــذا الحدث الــذي تجاهلته وسائل الإعــلام، ولم تتطرق إليــه في نشراتها الإخباريــة، يُمَثِّــلُ حالــة حــدث حقيقــي واقعــي، تَمَّ تبخيســه إلــى وضعية اللاحدث، لأنه مَرَّ في ظل صمت إعلامي رهيب، وبالتالي لم يره الرأي العام على حقيقتــه، ولم يتفاعل معه. وقد كانت النتيجة مختلفة وعكسية بالنسبة لحــدث مماثل سابق، ضخمتــه وسائل الإعلام، وبالتالي نجــح في أن يأخذ صفــة وضعية حــدث، واستطاع أن يجعــل النظام يتراجع عــن مشروعه[1]. الأمــر نفسه نلمسه من خلال مثــال الحركة المناهضة للعولمــة، والتي دأبت علــى تنظيــم احتجاجات دورية، مــوازاة مــع كل اجتمــاع دولي اقتصادي، للتنديــد بسياسات الليبرالية الجديــدة، وللتعبير عــن معارضتها الشديدة لاتفاقيــات الكات، وقد تزايدت حركية هذه الاحتجاجات عقب بروز منظمة التجــارة العالمية إلى الوجود سنة 1995، وحظيــت باهتمام متزايد من قبل

(1) François Dosse. La renaissance de l’événement. Op.cit. p317.319.

وسائل الإعلام، التي ركزت على أنشطتها، ومختلف وقفاتها الاحتجاجية، في عواصم العالم الكبرى، مما أثار انتباه العالم إليها، لكن بعد أحداث 11 شتبر، أوحت بعض وسائل الإعلام الرسمية إلى كون الحركة المناهضة للعولمة ستفقد الزخم الذي اكتسبته خلال السنوات الماضية. قيل آنذاك، إن الحرب العالمية على الإرهاب، التي تشنها إدارة الرئيس جورج بوش، صنفت هؤلاء المحتجين على أنهم (إرهابيون)، مما زاد المخاطر بالنسبة إلى المشاركين فيها. وقد تساءلت جريدة الغرديان من المملكة المتحدة في إحدى مقالاتها: (أين ذهب كل المحتجين السابقين؟)؛ فردت الحركة بسؤالها الخاص: (أين ذهب كل الصحافيين؟) بدا أن التكتيكات الجديدة للحكومات الغربية، ووسائل الإعلام الحليفة، تجاهل الاحتجاجات، إلى حد أنها حَرَمَتْ الحركة المناهضة للعولمة من أبعادها الكونية؛ فبخلاف التغطية المكثفة لاحتجاجات سياتل سنة 1999، والتي شارك فيها حوالي 60 ألف شخص، لم يحظ احتجاج ضم 250 ألف شخص في شوارع برشلونة، في مارس 2002، بالاهتمام نفسه والأهمية ذاتها، في تغطية شبكات الأخبار التي تسيطر عليها الحكومات الغربية. لقد انتقل محور التركيز أكثر إلى القضايا المرتبطة بغزو العراق، وأفغانستان، وتم تضخيم القضايا المرتبطة بتنظيم القاعدة.[1]

(1) ورويك موراي. جغرافيات العولمة، قراءة في تحديات العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية. ترجمة سعيد منتاق، عالم المعرفة، عدد 397، فبراير 2013، ص254.

الفصل الثالث

الحدث وتأويلاته

1 - تضخيم الأحداث: 11 شتنبر هل هو حدث عظيم؟

صناعة الحدث، وخصوصـــاً في المجتمعات المعاصرة التي تعيش تحت تأثير الإعــلام، تقتضي وقــوع صدمة مثل تلك التــي أحسها العــالم بأسره في 11 شتنــبر. من هذا المنظور، يُعتــبر هذا الحدث نتيجة لهذا النوع من الأحداث المكســرة، التــي تأتي فجــأة، ودون أن تكــون متوقعة؛ غير أنهــا تخضع أمام اندهاش الجميــع إزاء وقع الحدث إلى التضخيــم، والأسطرة؛ فهي تنساب وتتسلــل بشكل خفي، كالمرض عندما يدخــل إلى جسم الإنسان بسكون حتى يتمكن منه.

تُفهــم دلالــة الأحــداث في سياقاتهــا التاريخية، وذلــك عن طريــق إنشاء سلاســل ذات صلة. ولعــل أبرز مثال يمكن تقديمه في هذا الإطار، حدث 11 شتنبر. فهــذا الحدث التاريخي كُتب بشأنه الكثير، وصدرت بشأنه تأويلات متعددة، ومازالت آثــاره وتداعياته على العالم حاضرة إلى اليوم، كما بينت ذلك بوضوح العديد من الأبحاث الاجتماعية.

قامــت وسائــل الإعلام بتضخيم هــذا الحدث، لدرجة أن عــدداً كبيراً من النــاس في العالم، تابعت نشــرات الأخبار، بشكل مسترســل، لفهم ما جرى في ذلــك اليوم؛ ففضول الجمهور بشأن الحدث، والتساؤل عن من كان يقف وراءه، كانــا مــن القوة، بحيــث إن النــاس شاهــدوا قدراً كبــيراً وهائلاً من التغطيــة الإخبارية بشأنه. وكذلك الأمــر بالنسبة لأحداث الثورات العربية، وبالخصوص الثورتــان: المصريــة والليبيــة[1]؛ ففي وسائــل الإعلام، نجد

(1) لم تحـظ الثـورة السوريــة بالمتابعة الجماهيريــة الحماسية نفسها التــي حظيت بها الثورتــان المصرية والليبيــة؛ فقد فَقَــدَ الحدث جاذبيته الإعلامية، وذلك عكس المتابعة المكثفــة لأحداث الثورتين المصرية والليبية؛ إذ إن تراجع الفضول لدى العموم، يرجع إلى تحول الأمر مع مرور الوقت إلى لا مبالاة. فنتيجة كل العنــف الــذي تعرضنا له، بوصفنــا مشاهدين للتلفزيــون، فقدنا الحساسية تجاهــه. لذلك ستكون نتيجــة الثــورة السورية، في ظل الظــروف المحيطة بها، مختلفة في نتائجها عن الثــورات في تونس وليبيا

بعض أعمال العنف قد تكون أكثر أهمية بكثير من حدث 11 شتنبر، لكن لم تُعْـطَ لها القيمة نفسهـا، ولم تَحْظ بالتغطية اللازمـة؛ فأحداث عديدة تقع لكـن لا يُلتفت إليهـا، ولم يُعْنَ أحد بذكرهـا، أو بالإشارة إليهـا، وإذا جرى ذكرها، فبوصفهـا أحداثاً هامشية. إن النصوص والمواضيع التي ينقلها، أو ينتجها التلفزيون هي التي تؤثر في مشاعرنا، وليس الأحداث التي يتم تجنب ذكرهـا. ولعله يتبادر إلى ذهننا التساؤل حول ما إذا ما كنا سنخضع لنفس التأثـير، لو لم تكن لدينا كل تلك التغطية التلفزيونية لحدث مثل 11 شتنبر، أو الثورات العربية؟ ماذا لو لم نر كل تلك الصور والتقارير الصحفية؟

يعتبر الباحثان ألبان بنيسا، وإريك فاسان أن العلوم الإنسانية تقع على عاتقها مسؤولية تجاوز القراءة الاستهلاكية للحدث، كما تقدمه وسائل الإعلام، في زمن العولمـة والعصرنة؛ فالحدث مثار شك كبـير، والغموض اكتنف العديد مـن الناس الذين أحسـوا أن لا شيء سيبقى على حالـه، والتوضيحات التي تُقدمهـا العلـوم الاجتماعية تتمثل في المـآل، وفي التسـاؤل المستمر حول هذا الحدث: هل كان تعبيراً عن نهاية مرحلة، أم بداية جديدة لها؟

يتميـز الحدث في الوقت نفسه، ببداهـة القطيعة والشك بخصوص المعنى. وهـذه النقطة أساس غموض وتعقيد، وهـي مُنطلق بحث العلوم الاجتماعية بخصوص تناول الحـدث؛ فالحدث وَقَعَ، لكن ما هو أهـم بالنسبة إلينا هو مـا يقولـه الحدث[1]. وهنا يمكـن للعلوم الاجتماعية أن تفيدنـا أكثر من أي طرف آخر، حول حدث تتناوله وسائل الإعلام؛ فهي مطالبة بأن تُنتِج خطاباً

ومصـر، سـواء على المدى القريـب أو المتوسط، وهذه النتيجـة ستؤثر على ما سُمِّـيَ (الربيع العربي)، الذي قد يتوقف في حال فشل ثورة سوريا، لو دخل الفرقاء، بعد سقوط النظام، أو قبله، في حرب أهلية.

(1) Alban bensa et Eric fassin.les science sociale face à lʾévénement، terrain، numero38-Quʾest-ce Quʾun événement (mars 2002)، En ligne]، mis en ligne le 06 mars 2007. p11.

معرفياً يتجاوز الخطاب الإعلامي، الذي يُظهر الحدث وكأنه تفاصيل بسيطة في قصة إخبارية، بينما يمكن أن يكون له انعكاسات وتداعيات كبيرة، كما في حالات سقوط حائط برلين، وحرب الخليج، والحادي عشر من شتنبر.

لا يُفهم الحدث إلا من خلال سلسلة من الأحداث التي تدور في مراحل تقاس بعشرات السنين، وأحياناً بالمئات، وربما أكثر؛ (فالحدث في حد ذاته غامض، وغير مفهوم، وحتى تكون له دلالة، يجب إقحامه في مضمار أحداث أخرى، ليتخذ له معنى)[1]. لنأخذ على سبيل المثال هنا حرب الخليج الثانية، باعتبارها حدثاً تاريخياً؛ فغزو العراق للكويت في غشت 1990، والهجمات المضادة التي انتهت باستعادة الجيوش الحليفة للأرض الكويتية، في فبراير 1991، هي أحداث محددة، تقاس بالأيام، أو بالساعات، وأحياناً بالدقائق، تلك هي الفترة القصيرة التي يتناولها الصحفي. إنه منطق الحدث القصير المدى، والذي لا يمكن فهمه بشكل أفضل، إلا من خلال سلسلة من الأحداث التي تقاس في مدة زمنية متوسطة؛ إذ من الواجب الأخذ بعين الاعتبار قيام وتكريس دولة إسرائيل في الشرق الأوسط، والتطور الهائل لإنتاج واستهلاك النفط في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، والصدمات النفطية المتكررة بعد حرب 1973، وما يمكن أن يمثله تكرار ذلك من تهديد للكيانات الرأسمالية المهيمنة. صحيح، إن هذه الأحداث السياسية تشكل مواضيع في الوقت نفسه لعدد من العلوم الإنسانية والاجتماعية: مثل الاقتصاد السياسي، والجغرافيا السياسية، وعلم السكان. ومع ذلك تظل هذه الأحداث غير مفهومة، بشكل شمولي، إلا إذا تم ربطها بسلسلة الأحداث طويلة الأمد، والتي تمتد إلى الاختلافات الدينية بين الفرقاء المتنازعين:

(1) François Furet. L'attelier de L'histoire. Editions Flammarion. Paris. 1982. p74.

اليهوديـة، الإسلام بمذهبيـه السني والشيعـي، والمسيحيـة، بالإضافة إلى استحضــار التعــدد اللغــوي، والإثنــي، والتقاليــد السياسيــة، والاجتماعية بالمنطقــة[1]، مع عــدم إغفال متغــيرات الصراع الإقليمــي والدولي؛ فحرب الخليــج، بهذا المعنى كحــدث، ليس لها بداية مضبوطــة، ولا نهاية محددة، ومــا تسارع الأحــداث في المنطقة لحد الآن، إلا دليل علــى تشابك الأحداث؛ فنهاية صدام حسين لم تُنْهِ مسلسل الخليج والشرق الأوسط، ولم تبدأه.

تحكَّم نفس المنطــق في طريقة النظر إلى حدث 2001/11/9 أيضاً؛ بحيث لا يبــدو فقــط كنهايــة، بل كبدايــة لسلسلة جديــدة من النتائــج والتغيرات الممكنة التي يمكن نعتها بـ(ما بعد الكولونيالية). لقد رأينا كيف تمت إعادة تحديــد وتوضيح الإستراتيجيــات الأمريكية، في المنطقــة، من خلال صيغة جديدة لأشكال التحالفــات والتدخلات الإقليمية، من أجل مجابهة الأعداء المحتملين في المستقبل.[2]

قــدم الباحثان -السابــق ذكرهما- قراءة لما وقــع في 11 شتنبر، من خلال شبكــة تأويلية، اعتبراها إحدى القراءات الممكنة، فهذا الحدث في نظرهم، يتطلب تأويلاً لعلاقاته المتشابكة، والمعقدة في إطار العلاقات الدولية.

فبنــاء على الشبكة التأويليــة الأولى، يعتبر الباحثان أن حدث الحادي عشر مــن شتنبر جاء كنهاية لسلسلة من الهجمات الأخرى السابقة ضد الولايات المتحــدة الأمريكية؛ فالهجوم على المركز التجاري العالمي حدث سنة 1993، والهجــوم على الجنــود الأمريكيين في الجزيرة العربيــة حصل سنة 1996، والاعتداء بالمتفجرات على السفارتين الأمريكيتين، في نيروبي ودار السلام،

(1) راجــع بخصوص أهميــة استحضار الأحداث طويلة الأمد في الدراسات التاريخية والإنتربولوجيا. فيليب لابورت-تولــرا وجان -بيار فارنييه.اثنولوجيا وانتربولوجيــا. ترجمة مصباح الصمد، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2004، من ص52 الى ص54.

(2) Alban Bensa et Eric Fassin.les science sociale face à l'événement. Op.cit.p11.

بإفريقيا وقع سنة 1998. ويمكن أيضاً أن نعود إلى ما قبل هذه الهجمات، أي إلى سنوات حكم جيمي كارتر، مع غزو أفغانستان من طرف الاتحاد السوفياتي، حيث تحول المسلحون المحميون من طرف أمريكا، وحلفائها، إلى أعداء بامتياز، ويمكن أن نعود إلى أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران سنة 1979، وإلى حرب الخليج الثانية (عاصفة الصحراء) سنة 1991، إننا أمام سلسلة مترابطة من الأحداث المتشابكة.

حدثُ الحادي عشر من شتنبر يُفهم بهذه الطريقة، باعتباره نهاية لسلسلة من الأعمال الإرهابية، لما بعد فترة الحرب الباردة، وفي الوقت نفسه يمكن القول إن هذا الحدث نشأ عن الحرب الباردة نفسها، أي عن مخلفاتها. فهذه الشبكة المؤسسة على الصراع والتوتر الذي ميز العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، لا تؤدي إلى اعتبار الحدث كنهاية لمرحلة سابقة فقط، بل إن الحدث كما عشناه، في ظل وسائل الإعلام، اعتبره ميشيل فيهر Michel Feher كبداية. أما الحادي عشر من شتنبر 2011، في الشبكة التأويلية الثانية من قراءة هذا الأخير، هو أول (حدث ما بعد كولونيالي). وبناء على هذا المنطق، فإن القوى الإمبريالية بخوضها لمعارك فوق أراض خارج ترابها (التدخل في العراق، وفي الصومال..)، وبسبب تدخلها بالنيابة عن أطراف حليفة. تكون قد هيأت الظروف لوقوع حدث نيويورك، الذي يمكن عده بمثابة رد فعل ضد هذه السياسة التي تبنتها الخارجية الأمريكية؛ فالهجوم وقع على أراضي دولة جعلت من نفسها سيداً وشرطياً ووصياً على العالم، بعد نهاية الحرب الباردة. كما أنه هجوم على دولة تتمتع بالقوة التقنية والعلمية والعسكرية، وهو كذلك هجوم على دولة تلعب دور الخصم والحَكَم في المنازعات، وهو هجوم على دولة تهيمن على مجلس الأمن، وعلى الكثير من المؤسسات الدولية؛ لذلك كانت نهاية الحرب الباردة، من خلال

نتائجها وآثارها، أكثر شراً من بدايتها.[1]

خلق هذا الحدث، بفضل تداعياته، الحاجة إلى قوة تتولى دور الشرطة، والدرك، على المستوى العالمي، وكان لها دور حاسم في ظهور مجتمع عالمي جديد. لقد سعى تنظيم (القاعدة) إلى تدمير العولمة، وكانت هجماته سبباً في بروز شرطة عسكرية عالمية تشتغل باسم (الحرب على الإرهاب)، وقد اضطلعت الولايات المتحدة الأمريكية بمهمة قيادة هذه الشرطة، بحكم قوتها الاقتصادية، والعسكرية، ونفوذها السياسي، الذي تصاعد في ظل النظام الأحادي القطبية الذي تتزعمه. لقد عبأت منظمة الأمم المتحدة نفسها في مرحلة ما بعد الثنائية القطبية، لكن القيادة الحقيقية توجد بيد الولايات المتحدة الأمريكية، التي تسعى إلى تشكيل إمبراطورية عالمية.[2]

وهناك شبكة تأويلية ثالثة، تَعْتَبِرُ أن حدث الحادي عشر من شتنبر قَلَبَ المفاهيم، ومعه تَمَّ فتح صفحة من التاريخ الوطني الأمريكي، وليس فقط في العلاقات الدولية، إذ تغيرت بشكل كامل دلالة الرموز. وهكذا عاد ظِلُّ فرانكلين روزفيلت ليخيم على الأمة من جديد. وفي هذا السياق، نسجل عودة القومية الأمريكية إلى الواجهة؛ فقد تم إبراز أبطال جدد على الساحة الشعبية، ومنهم: ساعي البريد، والإطفائي، والشرطي، والجندي. فالإطفائي يضحي ويخاطر بحياته من أجل إنقاذ العالقين في مبنى مركز التجارة العالمي؛ والجندي يرابط في ساحة المعركة، ويقاتل أعداء أمريكا المحتملين، والشرطي يُحافظ في الدّاخل على أمن الوطن والمواطنين حتى لا تتكرر الاعتداءات مرة أخرى، وساعي البريد يتعرض بدوره للخطر وهو

(1) جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ حديث دار في 22 اكتوبر 2001 مع جيوفاني بورادوري. ترجمة صفاء فتحي-مراجعة: بشير السباعي. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2006.

(2) ادغار موران. إلى أين يسير العالم. ترجمة عبدالرحيم حزل، أفريقيا الشرق، 2012. ص73،72.

يحمل بين يديه رسائل تحتوي على الجمرة الخبيثة.

تمت إعادة الاعتبار لهذه الفئات، المهمشة في السابق، خلال حفل إعادة افتتاح وول ستريت (المركز المالي لنيويورك)؛ حيث تم استدعاء إطفائي وشرطي، وتم دق الجرس. إنها طقوس متعمدة تُحيل على الدور المهم الذي قامت به هذه الفئات، التي ينتمي إليها الجندي والشرطي وساعي البريد والإطفائي، وكل هذه الصور التي ركزت عليها وسائل الإعلام، بمختلف أنواعها، جعلت الطلبة يندفعون بشكل تلقائي إلى العمل ضمن هذه المجموعات أكثر من طلب العمل في البنوك الخاصة.

جعلت هذه المعايير المختلفة، هؤلاء المواطنين من موظفي الخدمات العمومية، رموزاً للوطنية ووجوهاً جديدة تختلف بشكل جذري عن نماذج سابقة كان ينظر إليها بشكل دوني؛ فقد أدت الهجمات على أمريكا إلى انتعاش جديد للنزعة القومية لدى الجمهور الأمريكي؛ ففجأة بدأ الناس يعرضون العلم الأمريكي خارج منازلهم وعلى سياراتهم[1]. وعلى المستوى الوطني، فالحادي عشر من شتنبر لا يحدد نهاية مرحلة، بل بداية مرحلة جديدة لانبعاث المفاهيم والقيم الوطنية التي يظهر آثارها على المستوى الاجتماعي. وهنا يتفق آرثر آسا بيرغر الباحث الأمريكي في مجال الاتصال والإعلام مع قراءة بينسا وفاسان؛ فقد اعتبر أن هذه الآثار الاجتماعية من نتائج صور وسائل الإعلام، التي أعطت لمأساة 9/11 أهمية بارزة، سواء بالنسبة إلى الشعب الأمريكي، أو إلى باقي الشعوب الأخرى. وربما لم يعرف التاريخ الحديث صوراً تلفزيونية مروعة مثل صور الطائرتين، وهما تتحطمان على مركز التجارة العالمي. وقد تلت تلك الصور صور أخرى مروعة، نرى فيها الناس وهم يقفزون من المباني، ليلقوا حتفهم، وشاهدنا

(1) ارثر اسا بيرغر. وسائل الإعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. م.س. ص165.

-بشكل مباشرة- صور أبراج عملاقة تنهار في كومة هائلة من الأنقاض، ممتزجة بالدخان المتصاعد من الحرائق التي ملأت السماء، حتى لقد قال بعض الناس، الذين سئلوا حول مشاهدة هذه الأحداث على شاشات التلفزيون، إنها بدت لهم وكأنها لقطات من أحد الأفلام السينمائية.

غيرت هذه الصور والبرامج الإخبارية المجتمع الأمريكي بشكل جذري، وحصل تغيير كبير في السياسة الخارجية للولايات المتحدة؛ فقد تبين أن ما يحدث في بلد فقير بعيداً عن سواحل أمريكا، يمكن أن يؤثر في الولايات المتحدة بطرق عميقة.[1]

غيّر حدث شتنبر مفاهيم متعددة على المستوى الداخلي، وتغيرت أشياء كثيرة في الحياة اليومية للأفراد العاديين داخل أمريكا وخارجها؛ فالجالية المسلمة في أمريكا وأوروبا، على سبيل المثال، أصبحت فجأة محل اهتمام كبير بسبب تصاعد ممارسات الكراهية وأعمال العنف ضدها، والتي تصل أحياناً إلى درجة جرائم القتل. وفي المطارات، أصبحنا نرى أن الحقائب والأشياء التي كانت تُحمَلُ بشكل عادي، أصبحت تخضع الآن لتفتيش دقيق ومراقبة صارمة؛ فباسم الإجراءات والاحتياطات الأمنية، أصبح مجال الحَياة الخاصة، والحريات الشخصية، يُنْتَهَكُ في بلدان كانت تُعتبر من أعرق الديموقراطيات، وأصبحت مراقبة الهواتف النقالة وتعقبها أمراً مسموحاً به، وأصبحت المراسلات البريدية والإلكترونية تخضع لمراقبة صارمة.

قَدَّمَ بدوره، جاك دريدا، رؤية تتقاطع، في نقاط عديدة، مع وجهة نظر بنيسا وفاسان، وتختلف عنهما في نقاط أخرى. يُقِرُّ جاك دريدا، بداية

(1) المرجع نفسه، ص164/165.

بـأن هذا الحدث (11 شتنبر) لا يمكـن محوه من الأرشيف المشترك لتاريخ عالمـي، أو مـن المفترض فيه أن يكـون عالمياً[1]، لكن من أين جـاء إلينا هذا الحدث؟ وكيـف فَرَضَ علينا سطوته من بين أحـداث مشابهة؟ لقد أعطتنا وسائـل الإعلام، في نظـره، انطباعاً بأن ما وقع (حـدث عظيم)؛ فالحدث الـذي تم تكرار صوره في المحطـات التلفزيونية مارس علينا نوعاً من التأثير القـوي، وهذا التكرار القهري، والترديد اللانهائـي لكلمة 11 شتنبر، جعلا مـن اليوم والشهر حدثاً عظيماً، حتى وإن لم تُذكر السنة التي شهدت واقعة نيويورك.

تَشَـكَّلَ الانطباع بوجود حدث عظيم بواسطة هيمنة اللغة؛ (فقد أُعيد إنتاج العديد من الألاعيب البلاغية في الحرب ضد الإرهاب)[2]. ووسائل الإعلام الأمريكيـة، بالخصوص، هي من قامـت بتضخيم صورة حـدث 11 شتنبر في أذهاننـا؛ فقـد فرض الحدث، مـن خلالها، على المُشاهـد سلطة الاسم والتسمية، وإلا كيف نفسر تحول مجرد تاريخ يوم عاد إلى ذكرى حدث رَسَخَ في ذهـن العالم؟ إن الصورة استهلكت الحـدث وأكسبته تأثيراً غير مسبوق بوصفه حدثا- صورة.[3]

إننـا حسب جاك دريد، أمام شيء استحـدث تاريخاً؛ فالحدث يأخذ ثراءه بقـدر ما يزلزل علاقاتنا التقليدية بالمعـاني[4]. إن جزءاً كبيراً من الأفكار، التـي وُرثت، هي حصيلة أحداث تاريخية مضت. وبقدر ما تتجدد الأحداث،

---

(1) جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر. م.س. ص36.

(2) - ألان باديـو. فشـل اليسار، ترجمـة عزيز لزرق ومنير الحجوجـي، دار توبقال للنشـر، الطبعة الأولى، 2011، ص6.

(3) - جان بودريار. ذهنية الارهاب. م.س. ص 32/31.

(4) - في نظـر شاتلـه، الحدث: (هو العمل الخارق الذي يدل على همة فاعلـه، والواقعة الغريبة التي تستحق أن تبقى في الذاكرة، وكذلك الفعل الذي يُغير مجرى الحياة البشرية)، وعليه فإن الحدث بهذا المعنى، يختلف عن الحدث المقدم في وسائل الاعلام. راجع عبد الله العروي. مفهوم التاريخ، م، س، ص68.

بقــدر ما تتغـيـر العلاقات بين الذات ومعانيها، بــين الإنسان وبقية الشبكات التــي ارتبط بهــا وارتبطــت به. فحين يكــون الحدث زلــزالاً علــى المستوى البصــري؛ فإنــه يحرّك المجتمعــات ويؤثر فيهــا من خلال إلحــاح الصورة الإعلامية. فالصــورة، حسب جان بودريار، تعظم الحدث من خلال تكثيره إلــى ما لا نهاية، وهي بهــذا تلعب دور الإلهاء والتحييــد، وهذا ما نغفل عنه دائمــاً في معرض حديثنا عن خطر وسائل الإعلام[1]. وحين قرأ جاك دريدا حدث الحادي عشر، ربط بين الحدث الواقعي والدورة الإعلامية؛ فقد كانت صــورة ذلك الحدث زلــزالاً تاريخيــاً ساهمت في تكريسه سطــوة الصورة. وحين تصحب الصــورة المؤثرات الصوتية، أو التلاعــب البصري بالمشهد، تكــون النتيجة وشمــاً أكبر في ذاكرة الإنســان؛ فالحدث له علاقــة بالرؤية البصرية وبالرؤية الثقافية أيضاً.[2]

لا أحــد ينكر أن 11 شتنبر برز عن طريق البهرجة الإعلامية؛ فقد أظهرت تغطيــة هذا الحــدث، والأحداث التي تلتــه، أن التلفزيــون يستطيع أن يؤدي خدمــة ثمينة لا تقدر بثمن[3]؛ فقد تحدث وقائع في كل لحظة، وفي كل مكان، ولا تتحــدث نشــرات الأخبار عــن كل الوقائع، هناك عمليــة تمييز وفرز؛ إذ تُذكــر بعض الأحــداث، ولا تذكر أخرى[4]. ويتساءل جــاك دريدا: كيف كان حــدث شتنبر سيمر من دون وجود أجهزة التلفزيون؟ وقد طرح هذا السؤال

(1) - جان بودريار. ذهنية الإرهاب، م س، ص 32.

(2) فهد سليمان الشقيران. أسئلة يخاف منها الجبناء. مجلة الحياة السعودية، بتاريخ 2 أبريل، 2012م.

(3) كانــت محطــة التليفزيون الإخباريــة الأمريكية (CNN) العــين الوحيدة للمشاهدين علــى وقائع حرب الخليج الثانية، وسير معاركها؛ فهي القناة الوحيدة التي سُمِحَ لها بمرافقة القوات الأمريكية، وقد لعبت دوراً مهماً في هذه الحرب؛ فقد تجنبت بوضوح كل ما من شأنه إثارة الرأي العام الأمريكي، أو إضعاف معنويات الجيش المُقاتل.

(4) عبدالله العروي. مفهوم التاريخ. م.س. ص68.

أيضاً آرثر آسا بيرغر، وغيره.[1]

لقد أعطانا الحادي عشر من شتنبر، أو ما سماه إدغار موران صدمة 11/9، الانطباع بأنه (حدث عظيم)، من خلال جسامة الحدث، والأبعاد الكونية التي أعطيت له، حتى إننا جُعلنا مع عمليات نيويورك ومركز التجارة العالمي، وبسبب آثارها، أمام الحدث المطلق، أم الحوادث، الحدث المحض، الذي يجمع في صلبه كل الحوادث التي لم تحدث قط.[2]

في البداية، حاولت الصين مثلاً، أن تحد من امتدادات هذا الحدث؛ فحصرته في زاوية الحدث المحلي الأمريكي، ربما بسبب العلاقات المتوترة بين القوتين العالميتين آنذاك، لكنها تبنت فيما بعد مفهوم (الحدث العظيم) كما أبرزته القنوات الأمريكية، والتحقت بركب التحالف المضاد للإرهاب.[3]

فهل يعتبر هذا الحدث فعلاً حدثاً فريداً وغير مسبوق في التاريخ؟ وهل هو حدث طارئ وجديد وغير متوقع؟ وهل يتضمن عنصر المفاجأة، والمخالفة، والخروج عن المألوف؟ وهل وَلّدَ نتائج؟ وهل مثل قطيعة في مسار الزمان؟ وما طبيعة الحدث الذي يستحق أن ننعته بـ(الحدث العظيم)؟

يَعْتَبِرُ جاك دريدا أن الحدث العظيم، يجب أن يكون طارئاً ومباغتاً، إلى درجة يؤدي إلى اهتزاز أفق المفهوم نفسه؛ فالحدث يكمن، قبل كل شيء، في كونه لا يُفهم بشكل أولي. فهل يعتبر حدث 11 شتنبر حدثاً لا سابق له؟ هل هو حدث لم يكن من الممكن التنبؤ به؟ هل هو حدث فريد في جميع جوانبه؟

يعترض جاك دريدا على تسمية ما حصل، في ذلك اليوم، بالحدث العظيم، لأن اللغة في نظره انطباعية، وليست حيادية دائماً، والوصف هنا يعود إلى

(1) - آرثر آسا بيرغر. وسائل الإعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. م.س. ص163/167.

(2) - جان بودريار. ذهنية الإرهاب. م.س. ص17.

(3) - جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س. ص71/72.

الهيمنــة السياسيــة والإعلاميــة والاقتصاديــة واللغوية الأمريكيــة؛ فهو لا يُنكــر الواقعة، بقدر ما يدفع إلى تحليلها بعمــق أكبر؛ إذ يستحيل أن نفصل الحقائــق العارية عن جهازها المعلوماتي، ولا بد مــن إعادة النظر، وتفكيك اللغة المركزية المستعملة، وذلك من خلال التفكير في مفهوم الحدث، وإعادة تأويله بِرَوِيَّة.

مَيَّزَ جاك دريدا، في قراءته لحدث شتنبر، بين انطباعين: فهناك من ناحية أولــى، واجــب الشفقة على الضحايــا والنقمة على المجــزرة المثيرة للحزن، والتي يجب إدانتها مبدئياً، ودون شروط أو حدود. وهناك من ناحية أخرى، الانطبــاع المســؤول تجاه الحدث الذي تشــكل إعلامياً، والــذي يقبل التأويل والتفكيــك، أي هذا التقييم الخاص للشروط، والذي يحاول أن يجعلنا نؤمن بأن هناك حدثاً عظيماً حصل.[4]

ينطلــق جاك دريدا من فرضية اعتبار 11 شتنبر حدثاً عظيماً، لينظر فيما يتضمنه من مفاجآت متفردة، ويتساءل: ما المقصود بكلمة الحدث العظيم؟ فهــل المقصود بذلك أبعاد الأبراج، أو الأراضي التــي شُنَّ عليها الهجوم، أو عدد الضحايا؟ لا أحد أحصى عدد الضحايا بالدقة نفسها في أماكن أخرى من العالم، في حالات أخرى مشابهة. لذلك وبغض النظر عن حقيقة التعاطف الحقيقــي مع ضحايا البرجين، فإن الأصداء التــي أثارها عدد الضحايا لم تكن أصداء طبيعيــة أو عفوية صرفة، بل هي أصداء تخضع لآليات تاريخية وسياسيــة وإعلاميــة مركبة؛ فالحقيقة التي يوضحها جــاك دريدا، في هذا السياق، هي أن الاضطرابات التي تقع خارج الأراضي الأوروبية والأمريكية، في كمبوديا، أو العراق، أو فلسطين، أو رواندا، أو أفغانستان، ومهما بلغ عدد

(4) رضــوان جودت زيادة، تفكيك دريدا لحــدث 11 سبتمبر، جريدة المستقبل، الثلاثاء 12 أكتوبر 2004م، ص18.

ضحاياهـا، ومهما كانت فورية؛ فلا يمكن مقارنتهـا مع حالة الحادي عشر من شتنبر[1]. يمكن هنا الإشارة على سبيل المثال، إلى الإحصائيات المقارنة التي قدمها نعوم تشومسكي في كتابه: An open media book 9-11 لعدد ضحايا 11 شتنبر، وأعـداد ضحايا عمليات أخرى تنتمي لإرهاب الدولة[2]. لم يعد يكفي قتل ما يناهز أربعة آلاف شخص، من المدنيين في عدة لحظات، باستعمـال التكنولوجيـا المتطـورة، لخلق حـدث عظيم؛ فهنـاك الكثير من جرائم القتل الجماعي التي لم يتم تسجيلها ولا تأويلها، والتي لم نشعر بها، ولم تقـدم باعتبارها أحداثـاً عظيمة، ولم يُعْطَ الانطبـاع بأنها تُمَثِّلُ كوارث لا تمحـى[3]؛ فالقاعـدة المتحكمـة، لا تتعلق بعـدد الضحايـا، ولا بالإبادات الجماعيـة، ولا بالمجازر الكولونياليـة الضخمة؛ فملايـين ضحايا الحروب المدنيـة والعالميـة، التي تمكـن بفضلها الغرب من بناء صـرح قوته، لا تُذكر لـدى الفلاسفة والمفكريـن، بل على العكس من ذلك، يتـم تمجيد المنظومة الأخلاقية الغربيـة، باعتبارها الشكل الوحيد للخير النسبي، في حين، (هم يتحاملـون ضد النزعات الكليانيـة، انطلاقاً مما خلفته من عدد الضحايا؟ علـى كل حال، إن الخلط الحاصل اليوم، في الخطاب بين هتلر وستالين وبن لادن، مرجعه هذه التمثيلية الكئيبة).[4]

هـذا فيما يخص عدد الضحايا، أما بخصوص فرادة الحدث؛ فيؤكد جاك

(1) جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س. ص 45.

(2) نعـرف عـدد القتلـى من الجيش الأمريكـي الذين سقطـوا في الحروب، وعـدد الجرحـى منهم وعدد المفقوديـن وعـدد أفراد أسرهم وأقاربهـم وأصدقائهم ومعارفهم على وجه الدقـة، ولكن لا أحد يعرف عـدد القتلـى من الأفغانيين أو العراقيـين، والأرجح أن أحداً لن يعرف. راجـع: بسام حجار (لكي نفهم ربمـا). من التقديم الذي قدمـه لكتاب ذهنية الإرهاب لماذا يقاتلون بموتهـم. مقالات مختارة، الطبعة الأولى، 2003م، المركز الثقافي العربي، ص9.

(3) نشـير هنا إلـى أن الولايات المتحدة الأمريكيـة لا تقف دائماً إلى جانب الضحايـا كما في حالات أخرى؛ مثلاً، المدنيين في هيروشيما، وغزة، وأفغانستان، والعراق.

(4) ألان باديو. فشل اليسار. م، س. ص7.

دريـدا، أن هنــاك مؤشرات بوجود تنبؤات سابقــة بإمكانية تعرض المنشآت الأمريكيــة لهجومات، لذلــك فإنه لم يكن من المستحيل أبــداً توقع مثل هذا الهجـوم على الأراضــي الأمريكية. كانت هنــاك هجمات سابقــة، ذَكَّرَ بها في هــذا السيــاق (عمليــة أوكلاهومــا، وتعرضــ البرجين التوأمــين لهجوم بالمفرقعــات لسنــوات قبــل 11 شتنبر، بالإضافــة إلى الاعتــداءات الأخرى التــي تعرضت لها المصالح الأمريكية في الخــارج)؛ فإمكانية التنبؤ بما وقع كانت واردة، وإلا بماذا نفسر الغضب الرسمي تجاه فشل جهازي المخابرات الأمريكية CIA وFBI ، اللذين تم التنديد بفشلهما الذريع، وكان من المفترض فيهما توقع حدوث هــذه الهجمات[1]. هذا التوقع المفترض للحدث، أدى الى ترويــج شائعات كثــيرة عن الحدث، أكثرهــا شيوعاً وشــذوذاً، الرواية التي تقــول إن كل ما حدث هــو محض مؤامرة إرهابية داخليــة لليمين المتطرف، وجهــاز ســي أي أي CIA. وقد برزت هــذه الرواية مع التشكيــك في الهجمة الجويــة على البنتاغون، وبالتالي في الهجمات على البرجين التوأمين؛ إذ إن البرجــين، حسب هذه الرواية، فُجِّرا من الداخــل، لأن صدمة الطائرات لم تكن كافية لانهيارهمــا[2]. إن الحدث هنا يتعرض للتشكيك في صحته لكونه لم يولــد فجــأة؛ فماذا لو كان هــذا مفبركاً؟ مــاذا لو كان مزيفــاً؟ يتساءل بودريــار، في مقالتــه التي نشرها في صحيفة لومونــد الفرنسية سنة 2001،

(1) جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م. س. ص43. وحسب عبدالله العروي؛ فقبل أن يحدث الحــدث، هــو أحد الممكنات. والإمكان لا يضمن الحدوث؛ فبعد أن يحدث ينتظم في سلسلة متراصة من السوابــق واللواحــق، دون أن ينعكس الأمر، ويصبح الحدث أمراً محتماً قبــل حدوثه. (مفهوم التاريخ) م.س. ص88.

(2) شكّك الصحافي، والناشط الفرنسي، تييري ميسانThierry Meyssan، في كتابه: (الخدعة الرهيبة) L'Effroyable Imposture ، في الروايــة الرسميــة لأحداث 11 شتنــبر؛ فقد أورد مجموعة من الأدلة تناقضــ رواية البيت الأبيض، وطرح عــدداً كبيراً من التساؤلات حول ما وقع، واتهم أطرافاً في الأجهزة العسكرية الداخلية بالتواطؤ في تنفيذ التفجيرات؛ وقد أصبح هذا الكتاب من المؤلفات الأكثر رواجاً بعد صدوره، وتمت ترجمته إلى 28 لغة.

بعنــوان: ذهنيــة الإرهــاب، والتي أثــارت جدلاً كبــيراً في صفــوف المثقفين الغربيــين؛ فقد عَبَّرَ، في المقال، عن وجهة نظــره تجاه أحداث الحادي عشر مــن شتنبر، وطــرح قراءة غير مسبوقة للعمل الإرهابــي، وما ترتب عنه من نتائــج، لدرجــة أن البعض اتهمه بأنه ذو نزعة معاديــة لأمريكا، وسياستها؛ فقــد وصفه جيرار هوبير بفيلسوف النموذج الإرهابي، وشبهه بميشال فوكو في منافحتــه عن الخمينية الإيرانية عام 1979، عندما كان مراسلاً لإحدى الصحــف بهــا. وعلى كل، فقد أدت مقاربة بودريــار للحدث، إلى فتح نقاش كبــير بين المثقفين، بخصوص مفاهيــم الإرهاب، والحرب، والخير، والشر، والعولمة، والإسلام، وغيرها.[1]

يعــدُّ حــدث 11 شتنــبر أيضاً، ومن زوايا كثــيرة، واحداً من الآثــار البعيدة للحــرب البــاردة نفسها، حتى قبــل نهايتها؛ حيــث كانت الولايــات المتحدة الأمريكيــة تدعم أعداء الاتحاد السوفياتــي بالسلاح والتدريب، فقد تكونت مجموعة القاعدة، من قبل أسامة بن لادن سراً، في عام 1988، لدعم مقاومة المجاهديــن بالسلاح والمال في أفغانستان. وعلى الرغم من الدعم الأمريكي لهــذه الحركة، في سياق الحــرب الباردة؛ فقــد أصبحت الولايــات المتحدة الأمريكيــة وحلفاؤها من الأوروبيين الأهــداف الجديدة لهذه المجموعة منذ التسعينــات؛ فقــد تحولوا فجأة إلى أعداء حقيقيين لهــا، خصوصاً بعد شن الحرب على العراق سنة 1990، وإنشاء القواعد العسكرية الدائمة بالخليج. لقــد هيأت أمريكا المناخ الملائــم لتلك القوى، ومهدت لهــا الطريق للهجوم عليها من خلال السياسة التي اتبعتها في فترة الحرب الباردة. ينبغي حسب جــاك دريدا، إعــادة تأويل ما يسمــى بنهاية الحرب البــاردة. وهو يتفق في

(1) للمزيــد راجع: ذهنية الإرهاب، لماذا يقاتلون بموتهم، جــان بودريار-جاك دريدا – ادفو ليامي-امبرتو ايكو... مقالات مختارة، ترجمة بسام حجار، الطبعة الأولى، 2003، المركز الثقافي العربي، ص9.

هذه القراءة مع التأويل الذي قدمه بنسا وفاسان للحدث نفسه؛ فالجماعات المتهمة بالتنفيذ، سبق لها أن تشكلت وتدربت في زمن الحرب الباردة، ومن ثَمَّ، فإن الحدث من النتائج التي خلفتها هذه الحرب.[1]

إن ما سيظل مريعاً في حدث 11 شتنبر، وما سيدوم بشكل لانهائي، هو ذلك الجرح الذي أحس به أهالي الضحايا والأمريكيون عموماً. إنه الشعور المستمر بالمأساة، والذي ساهمت السياسة الأمريكية نفسها في ترسيخه. إن الإجراءات التي قامت بها الحكومة الأمريكية، من قبيل عدم اجتماع عدد من الشخصيات المسؤولة في الدولة، في مكان واحد، أو في وقت واحد، ساهمت في خلق حالة من الخوف والقلق والترقب؛ فالحدث الذي وقع في الماضي القريب، أصبح حاضراً في الراهن. إنه إيحاء بإمكانية قرب اعتداءات أسوأ من تهديدات الحرب الباردة. هذا هو الخطاب الذي تم تسويقه إعلامياً ورسمياً، وفي نظر جاك دريدا، كان بإمكان النتائج أن تكون مختلفة لو قيل للأمريكيين: إن ما حدث لتوه بالفعل يمثل نكبة كبرى، ويشكل مصدراً لآلام لا نهاية لها، لكن كل شيء انتهى الآن، ولن نشهد أبداً حدوث نكبة بمثل هذه الجسامة، أو أشد وطأة منها؛ فبعد فراغ الأمريكيين من الحزن والحداد، كانت الأمور ستعود إلى وضعها العادي ومجراها المعتاد، وكان بإمكان واجب الحداد أن يساهم في التخفيف من آثار الصدمة، والتقليل من الشعور المستمر بالمأساة من الناحية النفسية؛ فطي الصفحة كان أمراً ممكناً، وقد حدث ذلك في أماكن أخرى من العالم؛ حيث وقعت أحداث مأساوية خلفت عدداً أكبر من الضحايا. كان بالإمكان تصريف الانفعالات حيال الحدث عبر الخطابات الرسمية، والبرامج الإعلامية، والصحف اليومية، لكن ذلك لم يحدث بالنسبة لحدث 11 شتنبر، فقد كانت هناك صدمة

(1) Alban Bensa et Eric Fassin. les science sociale face à l'événement. op.cit. P11.

أريد لها أن تستمر في الوجود؛ فالصدمة تبقى صادمة، ولا شفاء منها لأنها مقبلة من المستقبل؛ فالافتراضي يصدم. إن الأسوأ هو تكريس الخوف من هجوم نووي من شأنه تدمير الدولة بشكل كامل؛ فهذه الهجمات الافتراضية الكيميائية والجرثومية والمعلوماتية التي تم تَخَيُّلُهَا بالفعل، وعلى نحو مبكر، منذ ظهور عبارة الدولة المارقة، تم الترويج لها بشكل أقوى بعد هجمات شتنبر[1]؛ فقد أشيعت على نطاق واسع فكرة إمكانية حدوث شر أسوأ، وأعطيت إشارات قوية بذلك، أي إمكانية تكرار الحدث في المستقبل بشكل أخطر. فالصدمة، هنا، نتاج ما يتوعد به المستقبل، وليس الاعتداء الذي مضى وانتهى. لقد تحول الحديث إلى اتجاه إمكانية وقوع اعتداء بالأسلحة الكيماوية أو الجرثومية، بل ذهبت التنبؤات بعيداً؛ إذ تحدثت عن احتمال وقوع اعتداء نووي.[2]

إن الحدث الذي يحتوي على جانب من الصدمة، في تصور جاك دريدا، هو حدث عظيم، لذلك يجب التفكير في زمانية الصدمة، حتى نتمكن من التفكير في الأسباب التي قد تجعل من 11 شتنبر حدثاً عظيماً؛ فأي حدث لن يكون حدثاً عظيماً، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم الصدمة التي يخلفها في النفوس، ومقدار المخاطر الغامضة التي يتوعدنا بها مستقبل أشد خطورة من الحرب الباردة نفسها. وفي حالة الحادي عشر ظل الرعب مخيماً على المستقبل، ولم يقتصر على ما حدث في الماضي. وحسب بودريار، فإنه إذا كان هناك ثمة صدمة قد أحدثها الحادي عشر من شتنبر في الولايات المتحدة، وفي العالم بأسره؛ فإن هذه ليس قوامها، كما يسود الاعتقاد بشأن الصدمة غالباً، الأثر الجارح الناجم عما جرى فعلياً،

(1) جاك دريدا (ما هي الدولة المارقة). ضمن ذهنية الإرهاب. م.س. ص83.

(2) جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س. ص 54/47.

وعمـا جرى حاليـاً، وما قد يتكرر مـرة أخرى، بل من تصـور يقيني لخطر أسـوأ مقبل[1]؛ فامتحان الحـدث هنا، له مرادف مأسـاوي، وهو ليس فقط مـا يحدث في اللحظة الراهنة، أو ما حدث في الماضي، بل ما ينذر بالحدوث في المستقبـل؛ إذ مـن الممكن أن يحدث ما هو أسوأ مما حدث. فعندما يتعلق الأمر بالصدمة؛ فهو يتعلق بالحدث الذي لا تنبثق آنيته من الحاضر الآني، ولا من الآن الـذي أصبح ماضياً، ولكن من الحاضر القادم، والذي لا يمكن تمثله فيما بعد، من مستقبل مجهول؛ إذ يُصبح التهديد شاملاً، لكنه لا يأتي من دول بعينها كما هو الشأن في توازن الرعب، خلال فترة الحرب الباردة، بل يأتي من قوى مجهولة، لا يمكن توقعها، ولا رؤيتها.[2]

يعتمـد جاك دريدا، علـى ثلاث حالات، لتوضيح إرهـاب الحصانة الذاتية المتبـع من قبـل الولايات المتحـدة الأمريكيـة، لمواجهة الخطـر المحدق بها؛ فالوسائـل التي تستخدمها هذه القوة لمواجهة ما تمت تسميته بشكل مريب: (الحرب على الإرهاب)[3]، بما في ذلك جميع أشكال الحرب، تعمل جميعها علـى إحيـاء أسباب الخطـر الذي تَزْعُـمُ القضاء عليه، وذلـك في الأمدين القصـير والطويل معاً. فعدد الجنـود الأمريكيين الذين قُتلـوا، في ساحات المعـارك، خـارج أمريـكا، يمثـل أضعاف عدد مـن لقوا حتفهـم في أحداث نيويورك ومَنْهاتْن. وسواء تعلق الأمر بأفغانستان، أو العراق، أو فلسطين؛ فإن القنابـل الذكية المستعملة، لا تتيـح إمكانية منع سقوط ضحايا من المدنيين، ممـا يبقي على إمكانية قيـام الرد عبر حالات انتقـام مشروعة، من خلال

(1) جاك دريدا (ما هي الدولة المارقة) ضمن ذهنية الإرهاب. م.س. ص82.

(2) للمزيد راجع جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م. س. ص 60/53/52.

(3) بعـد الترويج لفكـرة نهاية التاريخ على المستـوى السياسي، عاد موضوع الإرهاب مـن جديد إلى واجهة اهتمـام الولايات المتحـدة الأمريكية القوة العظمى في العالم؛ إذ جيشت بشأنه جيوش الحلف الأطلسي، وشنت الحروب بسببه في أفغانستان والعراق، وما تزال إلى اليوم هذه الحرب مفتوحة.

الإرهــاب المضاد، لإرهاب أمريــكا الدولة، وهكذا إلى مــا لانهاية[1]. ويعتبر إدغار موران أن سياسة القمع، وإن استطاعت القضاء على الأعراض، فهي لا تقضــي على الأسباب، بل يمكن –بوجه خاص– أن تغذيها. وهذه الأسباب تكمن في التفاوتات، ومظاهر الجور والجحود. فالأمر يدعو إلى التأليف بين الحكمــة العالمية، والسياســة العالمية لمعالجتها. غــير أن الحكمة العالمية قد ضعفــت تحت قيــادة الأمم المتحدة، بعكس السياســة العالمية التي تضخمت بقيادة أمريكا.[2]

إن (الحــرب ضد الإرهاب)، تعبير شديد الارتباك، أفرزته وسائل الإعلام والــدول الكبرى. فليس الإرهاب شيئاً يذكــر، دون وسائل الإعلام. مَن خلق إرهــاب الانتراكس؟ أليس الشائعة الإعلامية؟ أحياناً تنتشر ضجة إعلامية مفتعلــة، يعقبهــا فراغ قاتل، مثل ما حــدث، على سبيل المثــال، بالنسبة إلى موضوع إنفلونزا الخنازير، واليوم يجري الحديث بشكل مُكَثَّف عن الإرهاب البيولوجــي، وعــن الإرهاب النووي. يجــري الحديث عن أنــواع متعددة من الإرهاب، لكن من هو العدو في هذه المواجهة؟ من الجلاد ومن الضحية؟

تحــدث الرئيس الأمريكي، جــورج بوش الابن، مراراً عن الحرب، لكنه غير قــادر على تحديد العدو الذي يُعلن، بأنه يعلن عليــه الحرب. وأغلبية الدول التــي أدانت (الإرهاب الدولي)، إنما فعلت ذلــك لإرضاء أمريكا، فالمفهوم يحمــل الكثير من اللبس، وهو يطرح العديد مــن الأسئلة بخصوص المعايير المعتمــدة للتمييز بــين (الإرهاب)، و(الدفــاع عن النفس). وقــد ذَكَّرَ جاك دريدا محاوره، بأمثلة كثيرة، تمت فيها الإشادة بإرهابيين، على اعتبار أنهم

(1) جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س. ص57.

(2) استخدمــت الولايــات المتحدة في نظر ادغار مــوران منطق الحاجة إلى شرطة كوكبيــة، ولم تتفطن إلى الحاجة الماسة لسياسة كوكبية. للمزيد راجع: ادغار موران. إلى أين يسير العالم؟ م.س. ص74/73.

مكافحون من أجل الحرية، وفي سياق آخر تمت إدانتهم باعتبارهم إرهابيين حقيقيين، ثم ماذا بشأن إرهاب الدولة؟ ولعل هذا اللبس هو أسوأ ما وقع نتيجة الحدث حسب ادغار موران؛ فقد وُصِمَتْ أشكال المقاومة التي تبذلها الشعوب المقموعة بـ(الإرهاب) من لدن مضطهديها، وخلقت (الحرب على الإرهاب) تحالفاً بين القوى المهيمنة ضد المقاومات الوطنية، وحدث ما هو أشد سوءاً؛ إذ أصبحت كلمة (إرهاب) تنطوي على إرهاب الدول، التي تمارس قمعاً أعمى على سكانها المدنيين كما هو الحال في إسرائيل؛ حيث تقوم الدولة بالقصف الجوي الرهيب، من أجل تصفية المقاومة الفلسطينية.[1]

نحن إذن، حسب دريدا، بصدد تشويش في الحقل الدلالي للكلمات والتعابير المستعملة؛ فحدث الحادي عشر من شتنبر أفرز عدداً من المفاهيم المُبهمة التي تحتاج إلى مراجعة وتحليل، بل وإلى تفكيك على طريقة دريدا. لقد أفرز الحدث تعدد المفاهيم، وتعدد التأويلات والرؤى؛ فجميع أنواع الإرهاب تُقَدِّمُ نفسها باعتبارها مجرد ردود أفعال، ودفاع عن النفس، ضد من هو أكثر إرهاباً. وهكذا يتم اتهام إسرائيل، والولايات المتحدة الأمريكية، والقوى ذات الطابع الإمبريالي، بممارسة إرهاب الدولة؛ فهم أكثر إرهاباً وخطراً من الإرهابيين، الذين تدعي هذه الدول أنها ضحية لهم، وهكذا تحول الإرهاب إلى مصطلح متداول يُطلقه كل فاعل على أعدائه. إنه اتهام متبادل، استفاد من الخلط، الذي واكب استخدام المفهوم المذكور في الفترة الحالية.[2]

في خضم حواره مع جيوفاني بورادوري، يحذرنا جاك دريدا، من الحروب المحتملة مستقبلاً؛ فالاعتداءات التي تحمل الطابع الإرهابي لن تعود في

(1) ادغار موران. إلى أين يسير العالم؟ م.س. ص74.

(2) اعتبر جاك دريدا أن الإرهاب الحقيقي لم يقع إلا في اللحظة التي بدأت فيها التعبئة الإعلامية، وعرض واستغلال الصور التلفزيونية. لقد وقع انحراف للحدث منذ اللحظة التي وقع فيها. للمزيد راجع جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م.س ص67/69.

حاجة إلى الطائرات، ولا إلى القنابل، ولا إلى الفدائيين الانتحاريين، بل يكفي التسلل إلى نظام إلكتروني له قيمة إستراتيجية، وإدخال فيروس فيه، أو تشويشه، أو العبث بمعطياته، أو تعطيله بشكل خطير، ليتم شَلُّ الموارد الاقتصادية، والعسكرية، والمعلوماتية، لدولة، أو قارة ما[1]. بهذا المعنى الجديد، سيصبح حدث 11 شتنبر من قبيل الحروب القديمة؛ إذ يمكن، أن تندلع غداً أو بعد غد، حروب موجهة ضد الشبكات الإلكترونية التي تعتمد عليها حياة البشرية في الوقت الراهن.[2]

2 - الطبيعة المتنافرة للحدث: ثورة ماي 1968

من أكبر التحولات التي عرفتها الدراسات التاريخية المعاصرة التي تهتم بـ(الحدث) الانتقال من النظر في الأسباب والعوامل إلى استشراف الآثار والمآلات. وقد عَبَّر عن هذا التطور الحاصل في المفهوم بشكل واضح الفيلسوف المتخصص في علم اللاهوت ميشيل دوسيرتو عندما علق بالقول على هامش حدث ماي 1968: (الحدث هو ما يؤول إليه)، وباعتباره دائما (ما سيؤول إليه)، يجعل من (غير الممكن التحكم في امتداداته)؛ فالحدث بهذا المعنى الجديد هو في حركة انبعاث مستمرة، ولا يمكن أبداً تحديده أو التحكم في صيرورته. وهو بذلك ينفلت من الحتمية التاريخية التقليدية، إذ يكثف معناه في اللامتوقع، فهو المفاجئ أو المذهل كما عبَّر الفيلسوف مارتن هايدغر، لأنه يُلغي المألوف، فظهوره انبثاقي يثير الانتباه. وليس أفضل من تعبير ميشيل فوكو في هذا السياق، والذي اقترح تعريفه المميز للحدث، فهو دائماً تشتت، هو ما يحدث هنا وهناك، إنه متعدد الرؤوس، إنه مثل المخادع

(1) استطاع قرصان فليبيني عبر حاسوبه المحمول أن يطلق فيروس أنا أحبك I love You، الذي جاب العالم مخرباً شبكات بأكملها. انظر جان بدريار: ذهنية الإرهاب. م.س. ص20.

(2) جاك دريدا. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ م. س ص59.

بروتيوس Proteus، القادر على التكيف مع الأوضاع المختلفة، لطبيعته المتغيرة باستمرار.

أكد الفيلسوف جيل دولوز بدوره على الطبيعة الخلاقة للحدث باعتباره الأصل في ذاته؛ فحدث مثل الثورة الطلابية لسنة 1968 لم يكن ممكناً التنبؤ به قبل وقوعه. ومثل هذه الأحداث غير المتوقعة منذ البداية مثلت تحدياً للتصورات والاستعمالات التقليدية للتاريخ، وهو ما حصل أيضاً في نظرنا بالنسبة لظاهرة الثورات العربية؛ فالأمر فاجأ الجميع بمن فيهم المؤرخون وعلماء الاجتماع في الغرب وفي العالم العربي على حد سواء، إذ كانت المجتمعات العربية تعتبر مجتمعات راكدة وعصية عن التغيير بالنظر إلى بنيتها الاجتماعية والقبلية القابلة للانقسامية والتجزئة. وقد كانت صحيفة نيويورك تايمز السباقة إلى تناول هذا السؤال في ملف خاص عنونته بتساؤل عريض: لماذا لم تتمكن الولايات المتحدة الأمريكية من ترقب الانتفاضات العربية؟[1]

لاشك أن الحدث مثل الجذمور الذي ينتشر بسرعة بين الأشجار، دون أن يكون محكوماً بمركز ما؛ فقد انطلقت الشرارة من تونس، وامتدت إلى مصر واليمن وليبيا وسوريا، وهي في تصورنا على وشك أن تتوقف كظاهرة على مستوى الأمد المتوسط في المنطقة بالنظر إلى ما انزلقت إليه الأمور بالمنطقة، ولا يمكن بتاتاً التنبؤ بما سيحصل على الأمد البعيد. ونستبعد أن تتكرر سيناريوهات معينة، وكل ما قيل أثناء المقارنة بحدث من قبيل الثورة الفرنسية، التي مرت بأطوار متعددة قبل أن تستقر إنما هي مجرد أوهام. فالفجوة بين المقدمات والنتائج هائلة جداً، والقول إن الحدث على

---

(1) راجع: جاك قبانجي، لماذا فاجأتنا انتفاضتا تونس ومصر؟ مقاربة سوسيولوجية، مجلة إضافات، العدد الرابع عشر ربيع 2011، ص10.

مستــوى الأمــد الطويل ستكون لــه نتائج إيجابية ربما هو قــول غائي يجانب الصــواب، إذ علينا كباحثين ومؤرخــين الابتعاد عن الإسقاطات غير المبررة المستنــدة إلــى المقولة الخاطئة: (التاريخ يعيد نفســه)، فمن طبيعة الحدث أنــه لا يخضــع لأي مســار أو خطة مسبقــة، فهو من طبيعته غــير غائي، ولا سطحي. لذا ليس من الضروري أن نجد لكل حدث مرجع وسوابق، ولا يجب تناوله في إطار كرونولوجــي بحت. بل يجب تقديمه كتوليف وتحول، باعتبار أن الزمــن يظــل مفتوحاً دائماً علــى مآلات مختلفة وغــير متوقعة، كما عبر المــؤرخ الفرنســي فرانسوا دوس في كتابه انبعاث الحــدث: تحدي المؤرخ بين أبي الهول والعنقاء.[1]

فــإذا أردنــا اليــوم أن نقــوم بفحص دقيق لحــدث مــاي 1968 في علاقته بالحاضــر، وكيف يشتغل في الذاكرة، وما يُمثله بالنسبة إلى المستقبل، فإننا سنجــد أنفسنا أمام حَدَث مُعقّد بشكل كبير بالنظر إلى مفارقات منطلقاته ونتائجــه؛ فهو يمثــل أكبر احتجاج في تاريخ فرنســا ككل، لكن من المستحيل منحُــه صورة موحــدة؛ إذ هناك انقســام متنافر بشأنه؛ فهــذا الحدث مَثّلَ انتفاضــة شبابية طلابية، انطلقت من المؤسســات الجامعية، ومن المدارس حيث تُعَشِّشُ أفكار تيارات (تُجسّد راديكالية الاحتجاج) على حد تعبير ادغار موران، فقد هزت هذه الانتفاضة (التصنيفات الاجتماعية) المتداولة. وهو مــا شَكَّلَ مفاجأة غير متوقعة آنــذاك، فالمعروف أن حركات الاحتجاج كانت تنطلق من المؤسسات العمالية ذات التأطير النقابي المحكم.

لقــد اخترقت الحركــة الاحتجاجية في 68 مــاي الشــوارع العامة على غير

(1) بشــأن هــذا المؤلَّف، يراجع: قــراءة في كتاب عودة الحدث لفرانسوا دوس، إنجاز خالد طحطح، يوسف المهاجــر، مجلــة أسطور، تاريخية دوريــة محكمة، المركز العربــي للأبحاث ودراســة السياسات، العدد الأول، 2015، من ص 163 إلى ص 172.

المتوقـع، انطلاقاً من أسوار الجامعات، وانضم إليها بعدئذ العمال، والعديد من الفلاسفة والمثقفين، أمثال: جيل دولوز، وفيليكس غاتاري، وبول سارتر، وايفي مونتان، وألان توران.

لقـد انطلقت الثـورة الطلابية مـن جامعتي نانتـير والسوربـون إثر حدث عادي، حيث تسبـب توقيف طالب وعرضه على المجلس التأديبي للجامعة، إلى انتشار شرارة انتفاضة غير مسبوقة، فالشوارع امتلأت بما قدره خمسة ملايـين محتج، أي ما يعادل نسبة 20 في المائة من الشعب الفرنسي آنذاك، ولهذا اعتبرها ألتوسيـر (أكبر إضراب في تاريخ الرأسمال).

رُفعـت خـلال انتفاضة ماي 1968 شعارات جيل جديـد من الرافضين لكل شيء؛ للرأسمالية، للشيوعية للتقليديـة، للمؤسسات. إنها ثورة شعار (المنع ممنوع). لكن ماذا بشأن مآلاتها؟

لقـد كشف مسـار الانتفاضة عن حقيقتـين متنافرتين؛ ففـي المشهد الأول ومـع بداية الثورة تكاد تختفي الهيئات السياسية وسلطة الدولة. وفي المشهد الثـاني، أي بعد انتهاء الحـدث، يُعاودان الظهور ثانيـة، وينتصران، وكأننا انتقلنا من مسار يسعى إلى (هدم بنية)، نحو مسار يُعيد (البَنْيَنَة).[1]

عـبَّر المتظاهرون خلال ثورة ماي عن رفضهم المطلق لشكل النظام القائم، وللمنطـق السياسي السائد، بل خرجوا على الشَّكل المتعارف عليه في طريقة الاحتجـاج؛ فقد كانـوا ضد تراتبيـة العمل، وضـد تراتبيـة السلطة، وضد الهيمنة النقابية على الحركات، وفي كل لحظة كانت تُطلق مبادرات اعتبرت فوضويـة. كان هناك بشكل خاص رفض جذري للديموقراطيـة التمثيلية، للإطار البرلمـاني المؤسساتي، فالشعار البارز لماي 68 كان: (الانتخابات فخ

(1) - ادغـار مـوران، ماي 68 أية أزمة؟ ترجمة المكي بوسراو، مجلة اختلاف، عدد خاص الطلبة والسياسة، العدد 6/7-1993، 86.

الأغبيــاء). إنها رؤيــة تشاؤمية، ثورية، ضد كل شــيء. لكن ما الذي حصل بعدئذ؟ لقد اختفت آثار الحدث.

ففجــأة بدأت حــدة الاحتجاجات في التراجــع تدريجياً بعــد خطاب رئيس الجمهوريــة شارل دوغول (1890–1970) الــذي دعا الجميع إلى الاحتكام لصناديــق الاقــتراع، ثم ما لبثــت أن توقفت، ثم حصلــت انتخابات. وماذا كانــت النتيجة؟ مفاجأة جديدة غير متوقعة، وجد الفرنسيون أنفسهم أمام أكــثر البرلمانات رجعية في تاريخهم. هُنا يكمن وجــه المفارقة، في كون أزمة ماي لم تنته إلى ثورة اجتماعية أو سياسية.

لقــد مثلــت حركة ماي 68 ثورة من نوع آخر، فرغــم قوتها البشرية لم ينتج عنهــا تغيير لنظــام الحكم، ولم يَتَسَلَّم الثوار مقاليــد السلطة؛ فعن أي ثورة نتحدث إذن؟

لقــد طرح الفيلسوف بــول ريكور في حــواره الأخير قبل وفاته ســؤالاً: ماذا حــدث فعلاً آنئذ؟ لا شيء أم الكثير؟ هــل كان الأمر لا يعدو كونه حلم يقظة كبــيراً؟ أم أنّه نوع مــن اللعب كما كان يذهب إلى ذلــك (ريمون أرون)؟ أم أنّ شيئــاً مُهمّاً حصل لم يتمكن من إيجــاد تصريف سياسي ملائم ولم يتم تدبــيره بشكل ناجح[1]. بل إنــه في تقدير آلان توران، أحد أكبر المتخصصين في تدريــس الحركات الاجتماعية، مَثَّلت الثورة ردَّ فعل الطلاب ضد سيطرة التكنوقراط الذين هيمنــوا على الجامعة، وهم بحركتهم الاحتجاجية، إنما عبروا عن تحديهم السافر للنسق السياسي، وللأبنية الفوقية، دون تخطيط مسبق، أو رغبة في اغتصاب السلطة، أو الاستيلاء عليها، وقد ظل ينظر إلى حركــة ماي 68، بوصفها قوة فاعلة في التغيير. غير أنه دُهش بعد ذلك، من

(1) حــوار مــع الفيلسوف بول ريكور، من فالانس إلــى نانتير، حاوره فرانسوا أزوفي ومــارك دولوني، ترجمة حسن العمراني، موقع مؤمنون بلا حدود، قسم حوارات، منشور بتاريخ 2015/11/19.

الجمود الـذي أصاب الطلاب الفرنسيين بعد الحـدث الشهير. وهناك من تحدث عن ثورة من نوع مختلف؛ ثورة ثقافية، وفكرية، وفنية، ثورة مجتمعية طالبـت بإعادة النظر جذرياً في النمط الاستهلاكي للمجتمعات الصناعية، وفي قضايـا التربيـة والتعليـم، والسلطة، والمـرأة، والجسـد، والحب. فبول ريكور أكّد أن الأحـداث بجامعة نانتير -مثلاً- لم تكن وراءها أسباب تتعلق بالتدريس، وإنما تقف وراءها أمور أخرى من قبيل تأكيد الذكور على حقهم في زيـارة الإناث في أماكن إقامتهن، لقد كانت (الثورة الجنسية) -حسبه- هـي الشـرارة التي فجرت الأحـداث. ولـذا فمايو 1968 بهـذا المعنى حمل معـه تحولات في العادات، وفي الحريـات الفردية والجماعية، كما برزت إلى السطـح بشكل قوي الفئة الشابـة ذات الطموحات والأحلام الطوباوية. لقد قـاد الحدث إلى بروز دور أكـبر للحركة النسائية التحرريـة، ثم إلى ظهور حركـة المثليـين، وحقهم في التعبير عـن أنفسهم، بل هناك مـن اعتبر هذا الحـدث بدايـة لسيطرة البنيويـين على حقل العلـوم الإنسانيـة، بعد حقبة مـن هيمنـة الوجودية بزعامة بـول سارتر، وتعتبر كتابـات دولوز وغاتاري، وبالخصوص (ضـد أوديـب)، و(الرأسماليـة والفصام) نتيجـة مباشرة لتأثرهمـا بأحـداث مـاي؛ فقد تجـاوزا بشكل قاطـع أفكار جـاك لاكان في التحليـل النفسـي، وهاجما (الآلية الأوديبيـة) باعتبارها آليـة قمعية، فَتَمَّ الترويجُ لفكرة الانتصار الثقافي في ماي، بَدَلَ استخدام كلمة نصر سياسي.

تمـت إعـادة النظر في حدث ماي مجـدداً في عـام 2008، وذلك بعد مرور أربعين سنة علـى وقوعه؛ فقد كُتِبَت حوله مقالات وكتب عديدة، وخصصت لـه برامج تلفزيونية، ونقاشات ساخنة. فلمـاذا كل هذا الصخب حول ماي 68، وبشـكل مبالغ فيه؟ هل هو نوع من الاحتفاء بحدث انتهى إلى الأبد؟ أم هـو على العكس مـن ذلك، نوع من الاحتجاج والتمـرد على الواقع الجديد؟

ومــا الذي يُمثله هــذا الحدث اليوم من دلالة بالنسبة إلــى الفرنسيين؟ وأي شيء تَغَيَّر بعد أكثر من أربعين سنة من وقوع الحدث؟

لم يكــن هنــاك اتفاق بــين المناقشين حول حــدث ماي؛ فهنــاك من اعتبره مجرد هيجان كرنفــالي للشباب داخل مجتمع رأسمالي، وهناك من اعتبره ثــورة مجتمعيــة حقيقية، بل هنــاك من ذهب إلى أن الأمــر لا يعدو أن يكون مجــرد (افتعال لقصة ثــورة)؟ من هذا المنطلق يمكننــا الحديث اليوم عن ثورة، وبالمقابل يمكننا الحديث عن لا شيء.

نسجــل من وجهــة نظرنا أن ثورة ماي لم تكن ظاهــرة فرنسية خالصة، بل وقعت وفي نفس الوقت انتفاضات شبابية في بعض جامعات أمريكا اللاتينية، وأوروبــا، وآسيا، مما يجعلنا أمام سياق داخلي وخارجي؛ إذ يمكن القول إن هذا التمرد، في حينه، مثَّل ظاهرة عالمية، وما تشترك فيه هذه الانتفاضات جميعــاً، اقتباس مفاهيمها وشعاراتها من الحقــل الدلالي الشيوعي، وأيضاً كانت تشــترك في ظاهرة الانفجار الديموغرافي السريــع غير المتحكم فيه. لكنهــا لم تكــن منسجمة في أمور كثيرة؛ إذ ستحــدث صراعات داخل حركة الإضــراب كما هــو الأمر واضح في فرنســا، وهي صراعــات عقيمة وحادة، جرت بين الحركة اليسارية الجديدة واليسار الكلاسيكي، وكذلك بين التيار التروتسكــي والتيــار الماوي والتيــار الفوضوي. فمــن كان يتحكم في الحركة الاحتجاجيــة؟ يصعب الحديث عن حركة منسجمة أو موحدة، بقدر ما كان الحــدث غلياناً متناقضاً، وكأنه كان يحمل بذور موته في بدايته. فعند نهاية مــاي 68، كانــت الراية الحمراء تُرى في نوافذ شقــق يسكنها البرجوازيون؛ فهنــاك العديد من الذين انضموا الى الحركة الاحتجاجية بدون أي تأطير، لكــن من أجل ماذا؟ إن الغالبية لا تعلم ما الــذي يحصل، وما الذي يجري؛ فالجمهور مُتفاعل، ومُنبهر، ومتحمس، ومنساق، غير أن أكثريتهم لم تعرف

بالضبط ماذا تريد حقاً؟[1] شاهدنا بأنفسنا ذلك في الصور التلفزيونية في حالة الثورة المصرية تحديداً.

في حدث ماي تبدو الطبيعة المتنافرة للحدث، إذ يمكن -حسب آلان باديو- التمييز بين ثلاثة مكونات، وبين ثلاثة أمكنة، وبين ثلاثة أنواع من الرموز والخطابات، وبالتالي ثلاث حصيلات مختلفة. يتعلق الأمر بالنسبة للطلبة بجامعة السوربون المحتلة. وبالنسبة للعمال، يتعلق الأمر بالمعامل الكبرى ببلانكور. وبالنسبة إلى ماي التحرري يتعلق الأمر باحتلال مسرح الأوديون. فعن أي ماي يمكننا أن نتحدث اليوم وغداً؟

يحق لنا، اليوم، أن نعود إلى سنة 1968، لنسائل الحدث من جديد: ماذا بقي منه اليوم؟ فيومذاك كانت أفكار سارتر، ودولوز، وغارتاري، وفوكو هي الرائجة بين الشباب. وفي سنة 2008، وبالضبط بعد مرور 40 سنة، شهدنا عودة قوية لليمين من خلال نجاح ساركوزي. أليست هذه من مفارقات وتناقضات نتائج الحدث؟[2]

نفس الأمر يمكن تمثله بالنسبة لمآلات أحداث ثورات الربيع العربي التي لا يمكن بأي حال منحُها صورة موحدة؟ فهل كنا بالفعل إزاء ربيع حقيقي كما اصطلح عليه أم أن الأمر يتعلق بشيء آخر مختلف تماماً عن التسمية المستوردة؟ أين تبخرت فجأة أحلام المحللين والمثقفين والإعلاميين الحالمين من العرب وغيرهم؟ لقد اختفت فجأة شعارات الديموقراطية والحرية والانتقال السلمي للسلطة وعوضتها مفردات على النقيض تماماً. أليس هذا بدوره من مفارقات نتائج الحدث الآني بعد مرور خمس سنوات فقط من وقوعه.

(1) بخصوص الطبيعة المتنافرة لحدث مايو، يراجع: ألان باديو. (إعادة النظر في مايو 68 بعد أربعين سنة)، ضمن فشل اليسار، ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 2011، ص34، 35، 36.

(2) -على سبيل المثال، بالنسبة لمفارقات وتناقضات ونتائج حدث 11 شتنبر، يراجع خالد طحطح، عودة الحدث التاريخي، م س، منن ص 149لى 168

إن التبجيل الذي رافق الحدث أثناء بزوغه من قبل المفكرين والإعلاميين والسياسيين المعارضين اختفى أمام النتائج المرعبة للحدث (الحرب الأهلية، التهجير القسري والاضطراري، الفوضى، تدمير الدولة..) وهو ما يجعلنا نعيد عقارب الساعة إلى الوراء بشأن التساؤلات والخلاصات المكرسة، حيث إنه خلال البدايات الأولى تركز الحديث عن قرب بزوغ فجر الإصلاح الديني وتنامي العلمنة، إذ بدا وكأن الحدث سيفتحنا بالفعل على تعزيز في قيم المواطنة وعلى مرحلة جديدة من الديموقراطية والتحديث السياسي والاقتصادي، بل إن هناك من أكد على كوننا سنقطع -بسببه- بشكل تدريجي مع كل مظاهر التسلط والاستبداد[1]، لكن لم يحدث ذلك الانتقال المنتظر، إذ انزلقت الأمور في اتجاه الفوضى والصراعات القبلية والطائفية. ربما تسرع الباحثون الذين ذهبوا بعيداً في التنظير والتخمين لنتائج الحدث إبان وقوعه، حيث لم يستوعبوا درس التاريخ، ولم يتنبهوا للتعقيدات الكثيرة الإقليمية والدولية المحيطة بالحدث وتداعياته، والتي تجعله مفتوحاً على مآلات لا يمكنها توقعها.

3 - الثورات العربية: تطويع الأحداث المتسارعة

لقد جاءت نهاية العقود الأخيرة من القرن العشرين، وبداية القرن الجديد، حافلة بالمتغيرات التي أفرزتها منظومة العولمة باعتبارها شكلاً اقتصادياً وسياسياً مهيمناً، وما وازى ذلك من ثورات في مجال تكنولوجيا الإعلام والمعلومات والاتصال. وفي هذا الصدد، أصبحت الوسائط الحديثة تلعب دوراً أساسياً في توجيه الرأي، وقد ساهم التفوق المادي والتقني الغربي

(1) بشأن نماذج من هذه القراءات، يراجع: كمال عبداللطيف، الثورات العربية: تحديات جديدة ومعارك مرتقبة، جامعة محمد الخامس، أكدال، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 61، من ص25 إلى ص30، ومن ص97 إلى ص121.

في خلق هوة شاسعة بينه وبين العالم الثالث، ومن ضمنه العالم العربي؛ فالحدث الإعلامي المعاصر الذي فرض نفسه، انطلق من أوروبا، في حين ظل العالم العربي -في ظل غياب حرية الصحافة والإعلام- بعيداً جداً عن هذه التحولات؛ فلزمن طويل ظل الإعلام الرسمي العربي -وبالخصوص المرئي- خاضعاً لرقابة مطلقة من طرف الأنظمة الحاكمة، فالمنظور الوحيد والنافذة اليتيمة التي كان يرى -من خلالها- المشاهد العربي العالم، هي القنوات الأرضية الموجهة؛ فأثر وسائل الإعلام في العالم العربي لم يبرز، بشكل حقيقي، إلا في العقد الأخير، وبشكل خاص في الثورات التي شهدتها المنطقة ابتداء من العام 2011؛ حيث تفاعل المشاهد العربي -بشكل لم يسبق له نظير- مع القنوات الفضائية المُتاحة، وهي تنقل الحدث الراهن بشكل مُباشر وآنيّ.(1)

بلا شك، استفاد شباب الربيع العربي مما أتاحته تكنولوجية الاتصالات والمعلومات، في مجال المناورة؛ فقد استعانوا بسلاح الوسائط التكنولوجية الحديثة، وخصوصاً منتديات التواصل، وهذه مسألة لا يمكن إنكارها، أو تجاوزها؛ فشبكات التواصل الاجتماعي، من قبيل: (فايسبوك)، و(تويتر)، و(المدونات الرقمية)، و(الصحافة الإلكترونية)، ساهمت في تغذية حماس الشباب الثائر، التواق إلى الحرية والكرامة؛ فحماسة نقل الأخبار، والصور، والتعليقات، على مدار الساعة، حافظ على صخب الثورة، وساهم في استمرار الروابط التواصلية بين الأعضاء المتواجدين في الميدان.

ساهمت وسائل الاعلام، بدور محوري، في التأثير على مجريات الأحداث،

---

(1) لقد ساهمت وسائل الإعلام العربية الجديدة -بشكل غير مباشر- في إنجاح ثورات أطاحت بأنظمة استبدادية في تونس ومصر وليبيا واليمن، بشكل متسارع ومفاجئ، لكن هناك عوامل أخرى، بالتأكيد، ساهمت في نجاح هذه الثورات غير وسائل الإعلام.

وتسريــع وتيرتها؛ فلم يكد يمضي شهر كامل علــى اللحظة التي أضرم فيها محمد البوعزيزي النار في جسده، حتى وجد الرئيس زين العابدين بن علي نفســه خارج السلطة في تونس. فلم يكن أحد يتصور أن هذا الفعل الفردي، الــذي وقع في منطقة سيــدي بوزيد بتونس، والذي حدث في عدد من البلدان المجــاورة سابقاً، وتكــرر أكثر من مرة، ستكون له كل تلــك الآثار على تونس والبــلاد العربية. من كان يظن أن قائداً عربياً بإمكانه الفرار من بلد حَكَمه لسنــوات بقبضة حديدية؟ ومن كان يحلم أن يرى يوماً الثورة تجتاح بسرعة فائقة بلداناً مجاورة، لتطيح بأنظمة عتيقة في كل من مصر، وليبيا، واليمن؟ وما زال شبح الخطر يتهدد إلى اليوم، نظام الحكم في سوريا؛ حيث ما تزال الثورة متواصلة.

الثــورات الفجائية التــي هزت البــلاد العربية فاجأت الجميــع، بمن فيهم المؤرخــون؛ فهــي لم تكــن متوقعــة مــن قبــل بالنسبــة للباحثــين في العلــوم الاجتماعيــة، لأسبــاب متعددة، منهــا: أنها وقعت في بلــدان تحكمها أنظمة سلطوية، لم تعرف أي تغييرات، منذ عقود، وذلك عكس مثيلاتها من الدول في أوروبا الشرقيــة، وأمريكا اللاتينية، وآسيا، ولأن متزعميها من الشباب، وهــي كتلة، طالما اعتبرها الخطاب السائد في العلوم الإنسانية، يائسة وغير مبالية، ومحدودة الاهتمام بالشأن السياسي، ولأن الفكرة التي ظلت سائدة بخصوص توسيع الحريات والحقــوق في العالم العربي، كانــت تأتي نتيجة للضغوطات الخارجية، أكثر منها استجابة لمطالب الشعوب في الداخل.[1]

إن الأطروحــات المركزيــة للنظريات، التــي تناولت الثــورات والانتفاضات السياسيــة والاجتماعيــة، والمقاربــات الرئيسيــة التــي حللــت الحــركات الاجتماعية، ركزت علــى مسألة توظيف التكنولوجيا، على المستوى الداخلي

(1) الطيب بن الغازي. أسئلة حول انطلاق الربيع العربي. تقديم، م.س. ص5،6.

والخارجي، في التعبئة وحشد التأييد، ولم تقدم بشكل رئيسي تفسيرات لفهم أسبابها ومآلاتها؛ فهل هي ثورة سياسية أم انتفاضة اجتماعية؟ وثورة من هي؟ وهل هي ثورة فئة من الشباب أم ثورة شعب؟ وأي فئة من الشباب قادت الثورة؟ ونتساءل: هل هذه الثورات نجحت دون أي تأطير أو توجيه سياسي من أي جهة كانت؟ وهل هي ثورات بلا زعامات، ولا قيادات، ولا إيديولوجيات، كما يشاع؟ وما الدور الذي لعبته القوى السياسية في الداخل إذن؟ وماذا عن التجاذبات الإقليمية والمصالح الخارجية؟ وما تأثيراتها على مسار الثورة؟ هل يمكن الحديث فعلاً عن ربيع عربي شامل؟ كيف يمكن رصد الاختلافات بين مسار الثورات في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا؟ وهل يمكن فعلاً، الحديث عن استثناء ما، كما في الحالة المغربية؟ وهل من خصوصية لبلدان ذات أنظمة ملكية، مثل: الأردن، والسعودية، والبحرين، أم أن هناك أسباباً أخرى أجلت مسار انتقال الثورة؟ إنها أسئلة كثيرة، تحتاج تعميق البحث فيها، من قبل المختصين في مختلف العلوم الاجتماعية، والسياسية، وذلك لتجاوز القراءات الاستهلاكية التي تم تقديمها في خضم الأحداث الجارية، والتي كُتبت كرد ساخن في تفاعل مع الأحداث، وهي تقع؛ فظلت بذلك حبيسة الأطروحات التقليدية المرتبطة بمناخ الحماس الشعبي، والديني، والزخم الإعلامي الذي رافقها منذ البداية، فَجُلُّ الكتابات التي تناولت الأحداث متعددة النقائص؛ فقد كُتبت بشكل متسرع، وسط لهيب الثورات، وتحت ضغط الشارع، ووسائل الإعلام، وتحكمت فيها مسارات السبق الإعلامي، والتسويق التجاري، والبهرجة، والانتقائية.

إن الأحداث المتسارعة التي صدمتنا جميعاً، تطرح علينا تحدياً، ورهاناً كبيراً، بالنظر إلى حجم الشعارات التي رُفعت خلالها، وبالنظر إلى النتائج التي أسفرت عنها لحد الآن. فهل سنشهد، على المدى القريب أو المتوسط،

تغييرات حقيقية على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في بلدان الربيع العربي، ترقى إلى تجارب دول رائدة، كما هو الحال في بعض دول أمريكا اللاتينية، وجنوب شرق آسيا؟ أم ستنجذب هذه الدول إلى مزيد من الاحتكاكات بين أطرافها على المستوى الداخلي، وبالتالي قد تُعيد إنتاج وتكرار تجارب استبدادية سابقة. إنها أسئلة وعلامات استفهام تفرض في المقام الأول، على المتخصصين ضرورة تفسير (الرجة) التي وقعت؛ بل هي مُجبرة على تقديم قراءات بشأن مآلات وآفاق هذه الثورات العربية، التي لاتزال أحداثها لم تستقر بعد بشكل نهائي.[1]

لقد شهدنا انتقال عدوى الثورة في الوطن العربي، كالنار في الهشيم، وسط تغطية إعلامية مكثفة ومُوَجَّهة؛ فما أُطلق على تسميته الربيع العربي، مَثَّلَ انتفاضة جماهيرية قوية، قامت فجأة ضد أنظمة قمعية ظنت نفسها سرمدية، ثورات أطاحت برؤوس زعماء كبار، وبرؤساء دول حَكَمَ مُعظمهم أزيد من أربعين سنة. حدثت هذه الثورات المتتابعة، بغتة، ودون سابق إنذار، كالإعصار المدمر، بعد عقود طويلة من الفساد، والظلم، والقهر، والاستبداد، وهذا الانتشار السريع والمذهل عائد، في جزء منه، إلى الفورة التي عرفها الإعلام العربي. فلا أحد يُنْكر أن انبثاق مجموعة من القنوات التلفزيونية، خلال العقدين الأخيرين، إلى الوجود كان له تأثير كبير على المشاهدين في المنطقة العربية. لا أحد بإمكانه أن يُشكك في الدور الذي قامت به المحطات التلفزيونية، والشبكة العنكبوتية، ومواقع التواصل الاجتماعي في دينامية

(1) قدم الأستاذ عبدالحي مودن في مقاله عن (الرجة الثورية العربية) أهم المقاربات التي تناولت ظاهرة الحركات الاحتجاجية في العالم بالدراسة والتفسير، ومن خلالها يحاول تقديم بعض المحددات التي تساعدنا على فهم الأحداث المتسارعة التي عرفتها المنطقة العربية. راجع: عبدالحي مودن، (الرجة الثورية العربية على ضوء نظريات الثورات والاحتجاجات). ضمن أسئلة حول انطلاق الربيع العربي، تقديم الطيب بن الغازي، م.س. من ص9 إلى37.

الثــورات العربيــة. ولا شــك أنه عندمــا سيُكْتَبُ في المستقبــل تاريخ الثورات العربية سَيكون موضوع دور وسائــل الإعلام، والإنترنت[1]، ومواقع التواصل الاجتماعي، حاضراً.

القنــوات الإعلامية العربيــة وظفت كل إمكانياتهــا وخبرتها لمتابعة مجرى أحــداث الثــورات العربية؛ إذ لم يكن رهان السبــق الإعلامي وحده المتحكم في تغطيــة هاتين القناتين بالخصوص، بــل كان الوقوف إلى صف (الثوار)، واستحضــار نبض الشــارع، في تغطيتهما لثــورات مصر، وليبيــا، واليمن، وسوريــا، حاضريــن؛ فالدعــم والانحيــاز كانــا قويــين في الإعــلام العربي الخليجــي لثــورة الشعب المصري ضــد نظام حسني مبــارك، ونفس الشيء ينطبق على الثــورات في ليبيا، واليمن، وسوريا. بالتأكيد لم تكن تغطية هذه القنوات محايدة تماماً في التعاطي مع هذه الثورات، لكن نحن بدورنا، ومن موقع المتابع للأحداث، وهي تجري أمامنا على الشاشات، لم نكن محايدين البتــة، كنا نشاهــد الأخبار، ونتابعها بقلــق شديد، كنا نخــاف على الثورة، كمــا لو أنها ثورتنا جميعــاً؛ فقد كنا نتمنى، وننتظر، في آن واحد، أن تنتصر إرادة الشعــوب، وتنجــح الثــورات بفــارغ الصبر. لقد مارس علينا الحدث الذي تابعناه، على القنوات التلفزيونية، سطوة كبرى جعلتنا نعيش الأحداث خطوة خطوة، كمــا سببت لنا المتابعة اليومية، والمكثفة، انفعالات قوية؛ فقد عايشنــا مــع الشعوب المنتفضة لحظــات الثورة بمشاعــر جياشة، وبتعاطف كامل، وبشكل مطلق.

لا أحــد ينكر الدور الإيجابي الذي تقــوم به وسائل الإعلام، في نقل الأخبار

(1) إن فرادة الإنترنت، تكمن في قدرتها على المزج بين أشكال مختلفة من التعبير، ومن الاتصال؛ فالإنترنت ملتقــى تحالــف الإعلام بالاتصــالات الهاتفيــة، بالحاسوب، بــأدوات الميديا، ومع البريــد الإلكتروني، وجماعات النقاش، والويب، أصبــح الإنترنت، شبكة الشبكات التواصلية. للمزيد راجع: فرانسيس بال. الميديا. م.س. الفصل الخامس من القسم الأول الذي خصصه للإنترنت، من ص51 إلى ص61.

والمعلومـات؛ فعن طريقهـا وعبرها يواجهنا الحدث بشـكل يومي، فالإخبار بالواقعـة هو الذي يمثل الحـدث؛ فكم من وقائع تحدث، ولا تهتم بها وسائل الإعـلام؛ فكونهـا وقعت يجعلها فقط تاريخاً، ولكي تصبـح أحداثاً يجب أن تُعـرف[1]؛ فالحـدث دائماً ينتظر إشبينـاً (parrain)، وضامنـاً، وواسطة، فللمـرور إلى خانة التاريـخ، يحتاج الحدث إلى كفيل. فلكـي تتحول الواقعة إلى حدث تاريخي، لابد أن تمر عبر هرم الرقي في سلم الأهمية[2]. وإذا كان المؤرخون قد لعبوا في الماضي، دور الإشبين، والواسطة، من خلال تحويل أي أحجيـة أو وقائع إلـى أحداث تاريخية؛ فإن وسائـل الإعلام اليوم، هي التي تقوم بالدور الذي كان يقوم به المؤرخ في السابق، ونقصد تحويل الوقائع إلى أحداث؛ فالحدث المعاصر لم يكن ليوجد، لولا وسائل الإعلام التي أصبحت جـزءاً لا يتجـزأ من الواقع اليومـي المعاش للشعـوب؛ فعندما تُقَـرِّرُ وسائل الإعـلام عدم نشر خبر ما، عن حدث معـين، يعني ذلك حذفه من التاريخ، والعكس صحيح.[3]

نأخـذ على سبيل المثال، أكبر وأعنف مآسـي العنف الكروي التي حدثت في العـالم كنموذج. ففي روسيا، وقبل 30 سنـة من الآن، حدثت مأساة في أحد ملاعـب كرة القدم بموسكو، خلفـت 340 قتيلاً، وحوالي 1000 جريح. هذه الكارثة التي وقعت في20 أكتوبر من سنة 1982، لم يعلم بها أحد بِمَا في ذلك لاعبو الفريقين، فقط عدد قليل من مسؤولي الدولة كانوا يعلمون بالفاجعة. لقـد ظل هذا الحدث الذي وقع مجهولاً، إلـى أن كشفته الصحافة الروسية سنة 1989، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، استناداً إلى الأرشيفات السرية. فالمباراة التي جمعت بين فريقي سبارتاك الروسي وهارلم الهولندي، برسم

(1) Pierre Nora. Le retour de l'événement. Op.cit.p212.

(2) François dosse. La renaissance de l'événement. Op.cit. p6.

(3) عبدالصمد الكباص. الحدث والحقيقة، م.س. ص24.

إقصائيات كأس الاتحاد الأوروبي لكرة القدم، انتهت بمأساة كبرى. فما إن بدأ الجمهور بمغادرة أرضية الملعب، قبل دقائق من نهاية المباراة، التي كان الفريق السوفياتي فائزاً فيها بهدف لصفر، حتى عاد معظمهم فجأة من الخارج مسرعين، بعد أن سمعوا هتافات قوية قادمة من مدرجات الجمهور الهولندي فرحاً بهدف التعادل، الذي سُجِّلَ في الوقت بدل الضائع. وفي طريق عودتهم إلى المدرجات، حصل تدافع عنيف بين الجماهير، راح ضحيته المئات منهم، بسبب انهيار بعض الحواجز الحامية للمتفرجين، بفعل الفوضى الهستيرية. وفي اليوم الذي أعقب المباراة، نشرت الصحيفة الرسمية (فيشيرنيايا موسكفا) خبراً مقتضباً، وصفت فيه ما حدث، أثناء المباراة، ومضمونه وقوع تدافع عادي بين مشجعي المباراة، أسفر عن جرح عدد قليل منهم. وقد صدق الناس الرواية الرسمية، ولم يعد بعد ذلك، أحد يتذكر شيئاً عن الموضوع، الذي ظل طي الكتمان سنوات عديدة. لقد قام الحرس الأمني بإخراج لاعبي الفريقين من الملعب، عند أول مظاهر التدافع، فظنوا أن شيئاً لم يقع. أما ذوو القتلى، فكل منهم ظن أن فقيدهم هو الضحية الوحيدة في هذه المباراة. وبهذه الطريقة، لم يعلم أحد بوجود قتلى آخرين سقطوا في تلك الحادثة. غير أنه في سنة 1989، أعادت الصحافة القضية إلى الواجهة، استناداً إلى معلومات ووثائق استخباراتية، تَمَّ الحصول عليها بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. وفي 20 أكتوبر 2007، تَمَّ إحياء الذكرى الخامسة والعشرين لهذه المأساة، بالمدينة نفسها التي حدثت فيها، وذلك بتنظيم مباراة ودية جمعت الفريقين، على ذات الملعب، خُصِّصَت عائداتها المالية لأسر الضحايا. كما تَمَّ نصب تذكار لهم عند مدخل الملعب. وقد عَبَّرَ اللاعبون بعد نهاية المباراة عن استغرابهم من الأمر؛ فقد مضت بهم الحياة، دون أن يدركوا بأنهم كانوا أبطال أكبر كارثة

عرفتهـا ملاعب كرة القدم في التاريخ، منذ نشأة هذه اللعبة. ينطبق الشيء نفسـه علـى حدث حَمَـاة في سوريا؛ فقد مَـرَّت المجزرة في ظـل تكتم شديد فرضتـه السلطات السورية آنذاك، لدرجة أن الناس لم يعلموا بما جرى من أحداث مؤلمة، في تلك المدينة التي قُتِلَ فيها أزيد من 20 ألف شخص، إلا بعد مـرور أشهر عديدة. اليوم تغـير كل شيء، فما يجري الآن يعرفه الناس بعد دقائـق معدودة، لأن العالم أضحى قرية صغيرة بسبب تقدم وسائل الإعلام والاتصال. لا يمكن اليوم تكرار ما حدث في حماة دون أن يكون له صدى على المستـوى العالمي، هذا أصبح أمراً من الماضي، في ظل الانفجار الرقمي. لقد تغير الزمن؛ فما يحدث في أي بقعة من كوكب الأرض، يعلم به الجميع فوراً، وهـذا التغيـير لم يكن ليقع، لو لم تكـن وسائل الإعـلام والاتصال الحديثة موجـودة، ومعممة؛ فما جرى في حماة، في فبراير سنة 1982، مِن قتل آلاف المدنيـين، علـى مدى أربعة أسابيع، لم يعلم بخـبره الناس إلا بعد مرور عدة أشهر، يَعُود سببه إلى التعتيم الرسمي الرهيب؛ فما وقع آنذاك، تَمَّ بعيداً عن أعين وسائل الإعلام.(1)

في شهر مارس من سنة 2011، انتفض السوريون من جديد؛ لم تكن الثورة بالنسبـة إليهم سـوى حلم، مثلما لم تكن عودة حمـاة إلى الحياة من جديد أمـراً متوقعـاً؛ فقد كان مجـرد الحديث عمـا وقع في حمـاة، يُعتبر جريمة يُعاقِـب عليهـا النظام السوري المستبـد. غير أنه اليـوم، انبعث الحدث من جديـد، وشَـكَّلَ إحياء الذكرى الثلاثـين لهذه المأساة، مناسبـة للتأكيد على إدانـة حزب البعث، ونظـام الأسد. وهكذا يعود الحدث بـدون توقف ليلعب بوجـوده الطيفي، مرة أخـرى، أدواراً جديدة في أحداث مُوالية، ويتسبب كل

(1) نفـذت قـوات الرئيـس الراحل حافظ الأسد هجومـاً عسكرياً عنيفاً، رداً على تمـرد مسلح نفذته حركة الإخـوان المسلمـين، أسفر عـن سقوط حوالي عشرين ألـف قتيل، بحسب بعض التقديـرات؛ فيما تقول المعارضة السورية أن عدد الضحايا تجاوز الأربعين ألفاً.

مرة في ظواهر غير مسبوقة. بهذا المعنى، هناك عدد قليل جداً من الأحداث التي يمكن اعتبارها انتهت، لأنها قابلة دائماً للظهور، والطفو على السطح من جديد؛ فالحدث نفسه، يظهر أو يختفي باعتباره واقعة فردانية، أقل مما يَظهر باعتباره نقطة عابرة منفصلة، قد تُضاف إلى الموقع أو تطرح منه. هناك في كل حدث، الكثير من المركبات المتنافرة والمتآنية، وهذه الميزة هي التي تسمح بتجدده[1]. لقد دعا المجلس الوطني السوري، والهيئة العامة للثورة السورية، ولجان التنسيق المحلية، بمناسبة هذه الذكرى، السكان إلى التظاهر تحت شعار: (عذراً حماة سامحينا)، كما صُبغت الشوارعُ الرئيسية في المدينة باللون الأحمر، وكتب عليها: (حافظ مات، وحماة لم تمت)، و(بشار سيموت، ولكن حماة لن تموت).

في ليبيا أيضاً، وقعت مجزرة رهيبة بعيداً عن وسائل الإعلام، وذلك عندما داهمت كتائب خاصة، يوم 29 يونيو 1996، سجن (أبو سليم)، الواقع في الضواحي الغربية من العاصمة طرابلس، وأطلقت النار على السجناء، بدعوى تمردهم داخل السجن، الذي يُعَدُّ الأكثر تحصيناً وحراسة في ليبيا، وقد تجاوز مجموع القتلى 1170 سجيناً، تم إطلاق النار عليهم، وقتلهم ببرودة أعصاب، ثم قامت تلك القوات بدفن الجثث في مقابر جماعية متفرقة من العاصمة، ولم يتم لحد الآن كشف أمكنة رفات هؤلاء الضحايا.

ينتمي أغلب السجناء القتلى إلى الجماعات الإسلامية المعارضة، التي كان يصفها معمر القذافي في خطاباته بتيارات الزندقة. وقد طالب أهالي الضحايا، ومنظمات حقوق الإنسان الدولية، طيلة سنوات، السلطات الليبية بالكشف عن مصير سجناء (أبو سليم)، إلا أن النظام الليبي ظل ينكر وقوع هذه الجريمة، محتفظاً لنفسه بسر حادث القتل الجماعي. وقد بقي

(1) جيل دولوز، فيليكس غاتاري. ما هي الفلسفة؟ م.س. ص161، 166.

التكتم والغموض يحيطان بالحادثة، حتى إن بعض الأُسَر كانت تجلب الطعام والثياب للسجن، كل أسبوع، دون أن تكون على دراية بوفاة أقربائها. ولم يتم الاعتراف بالحدث، علنا، إلا بعد مرور 13 سنة على وقوعه، أي في سنة 2009، وذلك بعد أن تسربت بعض المعلومات عنه إلى الخارج، الأمر الذي دفع بعض المنظمات الحقوقية، خارج ليبيا، إلى تصعيد الضغط على نظام القذافي للاعتراف بالمجزرة. وعندها، بدأ إبلاغ أهالي القتلى بوفاة أبنائهم، دون أي معلومات عن الظروف والملابسات المحيطة بها. بعدها، صعَّد أهالي ضحايا المذبحة من تحركاتهم ووقفاتهم الاحتجاجية، للمطالبة بمعرفة مصير جميع المفقودين من المعتقلين، والكشف عن أسباب وفاتهم، عبر تشريح الجثث، وفتح تحقيق قصد التعرف على المسؤولين عن الجريمة ومعاقبتهم. وأمام تنامي حجم هذه الضغوط، عرض النظام الليبي على أهالي الضحايا تعويضات مادية، مصحوبة بتهديدات شديدة اللهجة، وذلك مقابل تراجعهم عن مقاضاة الدولة. غير أن الأهالي رفضوا التنازل، وتمسكوا بحقهم في معرفة حقيقة ما جرى في ذلك اليوم العصيب، وطالبوا بحقهم في معرفة أماكن دفن القتلى، وأكدوا رغبتهم في متابعة المسؤولين عن الحادث قضائياً. وقد تولى قضية الدفاع عن الأهالي، في هذه المجزرة، مُحام ليبي فَقَدَ بدوره، أحد أشقائه وابن عمه وزوج شقيقته في الحادثة، وقد اعتقلته السلطات الليبية نتيجة نشاطه الحقوقي، يوم الثلاثاء 2011/2/15، قُبيل يوم واحد من انطلاق الاحتجاجات الليبية في 2011/2/17، والتي اندلعت مطالبة بالتغيير، وبرحيل النظام الليبي؛ فكان اعتقاله بمثابة الشَّرارة التي ألهبت الثورة. لذلك يُعد حدث مذبحة (أبو سليم) من بين الأسباب الرئيسية لانطلاق احتجاجات فبراير 2011، والتي أسفرت، في نهاية المطاف، عن انتهاء حُكم نظام القذافي. فهذا الحدث لم ينته، ولم

يمت، وإنما ظل حاضراً في ذاكرة أهالي الضحايا، والناجين، ولدى الليبيين جميعاً. وعندما اندلعت الثورات العربية، كانت الفرصة مواتية للجميع لكي يعبروا عن الغضب الذي يعج في نفوسهم، من هذا النظام القمعي المستبد الذي يُعتبر من أسوأ أنظمة الحكم في منطقة شمال أفريقيا.

تجري الآن، بعد نجاح الثورة، عمليات تحقيق مع المتهمين في أحداث مجزرة (أبو سليم)، وقد دخلت على الخط، منظمات حقوق الإنسان الدولية، وعلى رأسها: هيومن رايتش التي قابلت عدداً كبيراً من شهود العيان داخل السجون، والمفترض أنهم كانوا هناك وقت أعمال القتل في عام 1996، وكذلك بعض الحراس. وطبقاً لرواية هؤلاء الشهود؛ فإنه تم مساء 28 يونيو، احتجاز حارسين من قبل السجناء في أبو سليم، احتجاجاً على الأوضاع السيئة بالسجن، وقد توفي أحد هؤلاء الحراس؛ ففتح الجنود النار، وقتلوا ستة سجناء، وأصابوا نحو 20 آخرين. عقب ذلك، أرسلت الحكومة مسؤولين أمنيين للتفاوض مع السجناء، وكان على رأسهم صهر معمر القذافي، ورئيس مخابراته: عبدالله السنوسي الذي فاوض خمسة سجناء، عرضوا عليه مطالبهم، ومنها: وقف التعذيب، وإجراء محاكمات عادلة للسجناء، وتحسين جودة الطعام، والرعاية الصحية، وتوفير الزيارات الأسرية. وقد وعدهم رئيس المخابرات بالنظر في هذه المطالب إذا ما قاموا بالإفراج عن الحارس الأسير، وقد وافق السجناء على الشرط. وفي صباح اليوم التالي، تم نقل المئات من السجناء من مختلف العنابر إلى فناء جانبي من السجن، وتمت تصفيتهم بإطلاق النار عليهم من أسطح البنايات. وفي ظرف يومين، كان ما بين 1170 إلى 1200 سجين في عداد القتلى، وقد دُفنت جثامين السجناء القتلى داخل السجن سراً، ثم نُقلت بعد أعوام إلى أماكن مجهولة، وما زال موقع رفات الضحايا غير معروف. ولحد الآن، لم تبدأ محاكمة

أي متهـم مـن رجالات النظام السابـق المعتقلين في سجـون ليبيا الجديدة، لكن الروايات بشأن الحدث تكاثرت بعد سقوط نظام القذافي، وستكون هذه القضيــة على رأس الاتهامات التــي ستوجه إلى رموز النظام السابق، الذين سقطوا في قبضة الثوار في حالة ما إذا تمت محاكمتهم.

في النهاية نحن أمام مفارقة، ففي الوقت الذي نجحت فيه المجتمعات الغربية في تعزيـز ثقافة التسامح في مؤسّساتها وحياتها اليومية، لا تزال المجتمعات العربيــة تعـاني إلى اليـوم، من الانقســام الحادّ بـين أطيافهـا السياسية، ومكوّناتها القبلية، وهذا الأمر يمكن تمثُّله بالنسبة إلى مآلات أحداث ثورات الربيـع العربي، التــي لا يمكن بأيّ حـال، منحُها صورة موحّــدة؛ فبعد مدّة وجيــزة من التفاؤل المفرط، حدثت صَدَمَات مرتدّة، حيث شهدنا عودة قويّة للعنــف السياسي في مصر، بعد عام واحد على أحداث الثورة الأولى. ويبدو أفق ليبيا السياســي قاتماً، في ظلّ تنامي النعرات القبلية، وفوضى السلاح. أمّــا المصير، الذي ينتظر سورية، بعد سنوات مـن المواجهات، التي تطوّرت فجـأةً من ثـورة شعبية إلى مواجهات طائفية، فيبدو أكـثر غموضاً، دون أن ننسى ما ترتّب على الوضع في اليمن، في ظلّ احتكام المدّ الشيعي الحوثي إلى منطق القوّة. وتبقى حالة تونس استثنائية، مع صعوبة التفاؤل بمستقبلها، في ظلّ تأزم وضعيتها الاقتصادية.

لقـد تبخّرت، فجأةً، أحلام المحللين الحالمـين بمستقبل أفضل، بعد مرحلة مــا نُعِـت إعلاميــاً بـ(الربيـع العربـي)؛ إذ اختفت مـن الساحــة شعارات الديمقراطيــة، والحريّــة، والانتقــال السلمــي للسلطة، وعوضتهــا مفردات على النقيضـ تماماً؛ فقد انتعش خطاب العنف، وتصاعدت حدّة السلفيات المتطرّفة في أكثر من بلد، وأصبح خطاب التكفير هو الخطاب الأكثر تجذُّراً. هذه الــردّة في الفكـر وغيــاب الديموقراطيــة السياسية، وسيــادة التكفير

الديني، والإقصاء الطائفي، يسائل مخرجات المنطقة، إذ يبدو أن الآفاق انسدت بشأن الحلول للخروج من المأزق الخطير الذي آلت إليه ظروف المنطقة في الوقت الراهن.

خاتمة

نشارك جميعاً اليوم، في عودة الحدث، الذي ظل لمدة طويلة مُبْعداً عن التاريخ الأكاديمي؛ فالحدث أو مكان الذاكرة، بتعبير المؤرخ بيير نورا، يجد حالياً مكانه في الكتابات التاريخية، ويُثبت شرعيته من جديد. فلا شيء يمنع اليوم، الباحث من أن يتناول التاريخ، من خلال الحدث، أو الفرد، أو المكان، أو النصب التذكاري. لقد انتهى زمن الطابوهات والمحظورات التي كرستها مدرسة الحوليات، ومن بعدها التاريخ الجديد. فإحياء التاريخ السياسي، والاهتمام الذي بدأت تقيمه العلوم الاجتماعية المختلفة لتجارب الفاعلين الاجتماعيين، وعودة الاحتفالات الجماعية في فرنسا، بدءاً من تخليد الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية، ومروراً بتأسيس معاهد لدراسة التاريخ الراهن. لقد ساهمت هذه التغيرات في إعادة التألق والوهج للحدث مرة ثانية.

ما يحدث اليوم، هو أمر مختلف تماماً عن القرن التاسع عشر، الذي تميز بتقديس المؤرخ للأحداث. فالكتابة التاريخية، في عهد ارنست لافيس وشركائه، كانت مُغرمة بالحدث. آنذاك كان المؤرخ يُحب الحدث ويعشقه إلى درجة الجنون، باعتباره يوضح صيرورة الوقائع والأحداث الماضية. وحتى عندما تَشَكَّلَ التاريخ، كعلم مستقل داخل العلوم الإنسانية، فإنه أَسَّسَ وُجوده بالارتكاز على الحدث الذي شكل مادته الأساسية؛ إذ كان يكفي التخلص من التعابير الأدبية للمرحلة الرومانسية، للوصول إلى الحقيقة. إنه تاريخ تَمَيَّزَ بخطية الزمن التاريخي، وبتسلسل الأحداث الكرونولوجية. وقد تكرست هذه المفاهيم، حول التاريخ الحدثي، مع أجيال كاملة من المتمدرسين، الذين نهلوا من الكتب المدرسية التي ألفها مؤرخو المدرسة

الوضعانيــة. وقد ظـل الحدث معها طيلة القرن التاســع عشر، المادة الأولية للتاريــخ المنهجي، قبـل أن يَقَع رفضه نهائياً من طـرف الحوليات، والتاريخ الجديد.

تتبـع فرانسوا دوس، في كتابه الأخير: انبعــاث الحدث، التغيرات المعاصرة التــي ساهمت في الصعود السريع للحدث؛ فالتاريــخ أصبح آنياً، بسبب دور وسائل الإعلام المتعددة. والأحداث أصبح لها، بهذه الطريقة، معنى جديد. فالحدث ليس هو ما يمكن رؤيته، أو معرفته، ولكن ما سيؤول إليه. وإذا كان ادغــار موران قد قارن عودة الحدث بأبي الهول لقدومه غير المتوقع، ولمعناه الغامض، فإن المـؤرخ فرانسوا دوس شَبَّهَــهُ بالطائر الخــرافي (فينيكس) لطبيعته المتجددة.

لقــد ظل تمثــال أبو الهول مــزاراً للناس إلى حدود القــرن الرابع الميلادي، ثــم مــا لبث أن تعرضـ بعد ذلك للإهمــال؛ إذ طمرته الرمــال حتى لم يعد يظهــر منه شيء. لقــد بقي أبو الهــول مختفياً في الرمال إلــى فترة الحملة الفرنسيــة، بزعامــة نابليون بونابــرت على مصر؛ حيث أُعيــد اكتشافه من جديــد. ومازال هــذا التمثال الراقد في رمــال الجيزة، يُعَدُّ إلــى اليوم، من أعجب الآثار الفرعونية، ليس بسبب شكله المعماري فقط، ولكن للتساؤلات، وللأساطـير العديـدة التي نُسِجَتْ حوله، حتى غدا لغــزاً حَيَّرَ، على الدوام، ومــازال يحير إلى الآن، علمــاء الآثار؛ فأبو الهول يكتنفه غموض شديد مثله في ذلك مثل الحدث.

تَمَّ تشبيــه الحدث أيضاً بالطائر الأسطـوري (فينيكس)، الذي يُولد بشكل متجدد من رماده، وهو الوضع الممنوح للحدث؛ إذ أصبح في الفترة الحالية،

موضوعاً للعديد من التناولات المتجددة. إن أسطورة الفينيكس أو الفينيق[1]، ذكرها المؤرخ الإغريقي هيرودوت. وتُرْوَى، لدى العديد من الشعوب، بصيغ أخرى مشابهة. ومضمونها: أنه طائر يحترق ويتحول إلى رماد، ومن رماده يخرج مرة أخرى طائر جديد يعود إلى موطنه الأصلي، حاملاً بقايا الجسد القديم إلى معبد الشمس، في هيليوبوليس بمصر. هذه الأسطورة تجعل من العنقاء، طائراً يحيا فرداً ويجدد ذاته بذاته. وتُشير الرِّوايات المختلفة، عن هذا الطائر، إلى أنه يعيش ما بين 500 و600 سنة، أي إلى أن يحين وقت التجديد والتغيير؛ حيث يتجه رأساً إلى معبد إله الشمس رع، فينتصب طائر الفينيكس حاملاً جناحيه إلى أعلى. وبعد مرور لحظات يلتهب الجناحان ومعهما جسد الطائر الذي يتحول إلى رماد. ومن وسط الرماد، ينبعث طائر (فينيكس) جديد شبيه بالقديم، لكنه ليس هو تماماً. هكذا هو انبعاث الحدث أيضاً، عند فرانسوا دوس، هو كالعنقاء، لا يختفي أبداً، بما أنه يترك العديد من الآثار. فهو يعود بدون توقف، ليساهم بوجوده الطيفي في أحداث موالية، ويتسبب في كل مرة في ظهور أشياء لم تكن معروفة. بهذا المعنى، هناك عدد قليل جداً من الأحداث، التي يمكن اعتبارها انتهت، لأنها –جميعاً– قابلة للظهور والطفو على السطح من جديد.[2]

الحدث في الوقت نفسه هو أبو الهول والعنقاء، لكونه يتميز بخاصيتي الغموض والتجدد؛ فالحدث يبقى غامضاً باعتباره فردياً، وغير متكرر. والحدث بطبيعته متجدد؛ فهو قد يختفي لكنه يُعاود الظهور مرة أخرى، ليضرب ضربته ثانية. فبهاتين الخاصيتين، ينفلت الحدث من كل المحاولات التبخيسية التي أُلصقت به.

(1) طائر العنقاء.

(2) François Dosse. La renaissance de l'événement. op.cit.p 67/.

أكيـد أن الحدث لا يختفي نهائيـاً؛ إذ يمكننا القول: إن التاريخ يعممه. فكل شـيء يمكن أن يصبح حدثـاً؛ فاللاأحداث هي أحـداث لم تُسَمَّ بعد، لكنها متوقعـة، وبمـا أن كل شـيء يمكن أن يصبـح حدثاً، فإنـه لا شيء هو حدث حقيقـة. فالحدث المستجد ليس دائماً جديداً كمـا نظن، وإنما بُروزه يدخل ضمن صيرورة تاريخية، وضمن منطق اجتماعي. وأحياناً يتم تقديم الحدث (المفاجأة)، بينما كل شيء مفبرك في زمن عصرنة وسائل الإعلام.

تَصنـع وسائل الإعلام عناويـن، في كل طبعة، وتختلق أحداثاً هي في معظم الأحيـان مولود ميت. إن الحـدث لا يُعرف بأهميته الإعلاميـة فقط، وإنما بآثـاره. لذا لا يجـب أن نمنح هذا الاسـم إلا للأحداث الكـبرى التي تُذيب جليـد الروتين، والمتفق على كونها مهمة بشـكل كاف من طرف المعاصرين، أي الأحـداث القصوى المكسرة للبنية. فحسب بيـير نورا، علينا التخلي عن الحديث عن أشباه الأحداث، التي تتطفل على الأحداث الحقيقية، بأحداث زائفة.[1]

العصرنـة الحاليـة تعيشـ حالة من وفـرة المعلومات، إلى درجـة الإغراق؛ بحيـث أصبح مـن المستحيل معها متابعـة كل شيء. وبالنسبـة للمؤرخ بيير نـورا، الإعـلام هو من صنع التضخـم الحدثاني؛ فما نُطلـق عليه – اليوم- الدمقرطـة الإعلامية في عصر العولمة، أفرز لنـا أحداثاً مكررة، متشابهة، وأحياناً نمطية، ذات أفق محدود، وفي الغالب يتم تبخيس السياق.

تظـل إعـادة الاعتبـار للحـدث، حتى وإن بـدت مقنعة، غامضـة من بعض وجهـات النظر؛ فإذا أُخِذَتْ بصورة سطحية ضمن قراءة موجزة، يمكن أن نرى فيها موقفاً من المواقف المختلفة حول الموضوع القديم بتسارع التاريخ.[2]

---

(1) Alban Bensa et Eric Fassin. Les sciences sociales face à l’événement. Op.cit.p4.

(2) ميشيل فوفيل. التاريخ والأمد الطويل. ص178.

فالزمـن التاريخي يمضـي أمامنا اليوم، في زمن عصرنـة الإعلام، بوتيرة سريعة، لدرجـة أصبحت معها كتابة التاريخ تواجـه صعوبة في متابعة زخم الأحـداث، وذلك بشـكل يضاهي بكثـير، الصعوبة التـي عَبَّرَ عنهـا مُنَظِّرُ التاريـخ لورنز فون شتاين، سنة 1843م. يبدو الأمر أشبه ما يكون بممارسة التاريـخ من فوق عربة متنقلة؛ فالمؤرخ لا يستطيع تسجيل كل ما يمر به، من أحـداث، بسبب التطور الهائل في سرعة انتقال وتبادل المعلومات[1]. كما أنه لم يعـد وحـده في الساحة؛ فقـد تصاعد دور المثقف الإعلامـي، وهذا النوع مـن المثقفين، له تأثير حقيقي على الحياة السياسية، في مجتمع يُكَرِّسُ وقته للإعلام، أكثر مما يمنحه للتفكير والقراءة. كما أنّ له دوراً هاماً في تحريك (الخطـوط الحمراء) بالنسبة إلى قضايا متعددة، ومن شأن ذلك أن يطور –إيجابيـاً– مناخ اشتغـال المؤرخ. وفي هـذا السياق، يمكـن التذكير بعامل ساعد على الانتقال من الذاكـرة إلى المعرفة التحليلية للماضي القريب، في بعضـ التجارب، من خلال التلاقح بين المؤرخ وعـالم السياسة، وكذلك بين المـؤرخ والصحفـي، ومعناه الصحفي الذي يزاوج بـين عمله اليومي السريع وبـين نفَسـ البحث والتأليـف؛ ففي الولايـات المتحدة الأمريكيـة، جاء ألان نِيفينْ مؤسس (التاريخ الشفوي) من الصحافة، وفي فرنسا يعتبر الصحفي جـان لاكوتير– مراسل جريـدة (لوموند) في المغرب سابقـاً– هو من أسس سلسلـة (التاريـخ الفوري) بإحـدى كبريات دور النشر. وجـاء روني ريمون مـن علم السياسة، وهـو أول من دعا إلى البحث في الملفات الحساسة للقرن العشرين.[2]

(1) حـول تسـارع التاريخ كتب جـان نويل جانينـي في عام 2001 م (هل يجـري التاريخ بسرعـة) فرانسوا هارتوغ. تدابير التاريخانية. ص213/175.

(2) مقتطـف مـن حوار نشرته جريدة الاتحـاد الاشتراكي مع المؤرخ عبدالأحـد السبتي، عدد يوم 11–12–2009.

رغـم أهميــة الإعلام اليوم في الحيــاة اليوميّة للمواطنــين في مختلف بقاع العــالم، يُتَّهَــمُ الصّحافيون –عكــس المؤرخين– بأنهــم لا يبحثون عن جذور الظّواهــر والأحداث التّاريخية، وإنمــا يكتفون فقط بسردهــا سرداً سريعاً وسطحيــاً. وهنا يكمن الفرق بين مهنة الصّحفــي ومهنة المؤرّخ؛ فالصَّحفي يتحــدَّث فقط عن الحاضر ومشاكله الآنيــة دون الغوص في تفاصيل وجذور مواضيعــه، وبالتّالي يُعتبر منظوره قصير النظر. في حــين، ينبش المؤرِّخ في أعماق الوقائع؛ فهو لا يكتفي أبداً بما يُعرض على وسائل الإعلام والإنترنت، بــل يحاول الوصول إلى الوثائــق والمستندات الأصليــة في منابعها، ويحرص علــى ذلــك أشدّ الحرص. ولذلك، فــإن تحليلات المؤرِّخــين، تُقنع وتُشبع في شموليتهــا القارئ، على عكس التّقارير الصّحفية المنجزة بشكل سريع، على الرغم من أهمِّيتها بالنِّسبة للمُشاهد العادي. بالطبع تختلف أدوات التّحليل والتفكيك لدى الصّحافي والباحث التّاريخي؛ فالمنهجية والخلفية، بالتأكيد، ليســت واحدة. وإذا كانت وسائل الإعلام المختلفــة تُعطي حيِّزاً واسعاً اليوم للأحــداث السياسية، فــإن الطّريقة المفكّكة التي تُعالج بهــا الوقائع أحياناً، لا تمنــح أيــة منهجيّــة، أو أي معقوليّــة تاريخيّة لهذه الأحــداث. وهنا تكمن الخطــورة؛ ففي ظل افتقــاد المشاهد البسيــط لأي نظرة شموليّــة للظّواهر التّاريخيــة والسّياسيّة، تقوم وسائــل الإعلام، عن وعي أو دونه، إلى تجزيء الصّيرورات التّاريخية، إذ لا تُسجّل الوقائع والأحداث ضمن منظور شموليّ.

بيبلوغرافيا
مصادر ومراجع باللغة العربية

ألان باديو. فشل اليسار، ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى 2011.

أندلسي، محمد. نيتشه وسياسة الفلسفة. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006.

اوفروا، دومينيك. ابن رشد طموحات مثقف مسلم. مراجعة سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى، 2011.

أومليل، محمد. السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 2011.

بال، فرانسيس. الميديا. ترجمة فؤاد شاهين، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008.

بن القاضي، أحمد. المنتقى المقصور على مآثر المنصور. الجزء الثاني، تحقيق محمد رزوق، الجزء الثاني، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى.

بن سليمان، فريد. مدخل إلى دراسة التاريخ. مركز النشر الجامعي، تونس، 2000.

بنحادة، عبدالرحيم. المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، إشراف د. محمد مزين، موسم 1995/ 1996، جامعة سيدي محمد بن عبدالله ظهر المهراس فاس، مرقونة.

بنعبدالعالي، عبدالسلام. ضد الراهن، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2005.

بودريار، جان. ذهنية الإرهاب، لماذا يقاتلون بموتهم، جان بودريار-جاك دريدا – ادفو ليامي-امبرتو ايكو... مقالات مختارة، ترجمة بسام حجار، الطبعة الأولى، 2003م، المركز الثقافي العربي.

بوميان كريستوف. نظام الزمان. ترجمة بدر الدين عردوكي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى 2009.

بيرتي، بيير. معركة وادي المخازن. تعريب امحمد بن اعبود، خديجة حركات، أحمد عمالك، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991.

بيرغر، ارثر اسا. وسائل الإعلام والمجتمع. وجهة نظر نقدية. سلسلة عالم المعرفة، عدد 386، المجلس الوطني للثقافة، الكويت،2012.

تولار، جان، توييليه، غي. صناعة المؤرخ. ترجمة عادل العوا، الطبعة الأولى، سوريا، دار الحصاد للنشر والتوزيع

تولرا، فيليب لابورت. وبيار فارنييه، جان. اثنولوجيا وانتربولوجيا. ترجمة مصباح الصمد، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2004.

التيمومي، الهادي. نظريات المعرفة التاريخية وفلسفات التاريخ في العالم الغربي في النصف الثاني من القرن 20م مختارات معربة- إشراف وتنسيق الهادي التيمومي- المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون – بيت الحكمة 2008.

حدجامي، عادل. فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف. دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2012.

دريدا، جاك. ما الذي حدث في حدث 11 شتنبر؟ حديث دار في 22 اكتوبر 2001م مع جيوفاني بورادوري. ترجمة صفاء فتحي- مراجعة: بشير السباعي. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2006.

دوس، فرانسوا. التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد. ترجمة د. محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى يناير 2009.

دولوز جيل، غواتاري فيليكس، ما هي الفلسفة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1997.

دولوز، جيل. المعرفة والسلطة: مدخل لقراءة فوكو. ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1987.

دولوز، جيل. الاختلاف والتكرار، ترجمة وفاء شعبان، مراجعة جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، 2009.

دي صالدارنيا، انطونيو. أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب. تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب عثمان المنصوري لطفي بوشنتوف، إعداد النص الأصلي انطونيو دياش فارينيا الطبعة الأولى، 2011.

راكيتوف، أناتولي. المعرفة التاريخية، ترجمة عبود، دار دمشق للطباعة والصحافة والنشر، سوريا، الطبعة الأولى، 1979.

ريكور، بول. الذاكرة التاريخ النسيان. ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى، 2005.

السبتي، عبدالأحد. قضايا منهجي في التاريخ والذاكرة: أوراش في تاريخ المغرب. المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2011.

صالح، عبدالمنعم. الإنسان بين العلم والخرافة. كتاب سلسلة عالم المعرفة، عدد 235.

طحطح، خالد. الكتابة التاريخية، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2012.

العروي عبدالله. العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي، البيضاء، 1983م.

العروي، عبدالله مجمل تاريخ المغرب. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة 2، السنة 2009.

العروي، عبدالله. مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2005.

العلوي، عبدالحفيظ. كتاب في التاريخ، مخطوط بالخزانة الوطنية بالرباط، تحت رقم 12160.

عيسى، لطفي. أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ. دار سيراس للنشر، 1993، تونس.

عيسى، لطفي. مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن السابع عشر. سراس للنشر 1994.

غيرتـز، كليفـورد،. تأويل الثقافات. مقالات مختارة، ترجمة محمد بدوي، مراجعـة الأب بولس وهبة، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، دجنبر، 2009.

الفاسـي، محمـد العربي بن يوسف. مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2008.

فايـن، بـول. أزمة المعرفـة التاريخية -فيكو وثورة في المنهـج- ترجمة وتقديم إبراهيـم فتحي، الطبعة الأولى، مـدار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون، القاهرة، 1993.

الفشتـالي، عبدالعزيز. مناهل الصفـا في مآثر موالينا الشرفاء. دراسة وتحقيق عبدالكريم كـريم منشورات جمعية المؤرخين المغاربة الرباط، المملكة المغربية، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة 2005.

فوكـو، ميشال. جينيالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبدالسلام بنعبدالعالي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2008.

الكباص، عبدالصمد. الحدث والحقيقة، افريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى، 2013.

كريزويل، إديث. عصر البنيوية. ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، الكويت، 1993.

كوثـراني، وجيـه. تاريـخ التأريـخ: اتجاهات – مدارس – مناهـج. المركز العربي للأبحـاث ودراسات السياسة، الـدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى 2012.

لانغلوا شارل، وسينوبوس شارل. المدخل إلى الدراسات التاريخية. ترجمة عبدالرحمن بدوي، ضمن النقد التاريخي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الرابعة 1981.

لوغوف، جاك. التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبدالحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى، 2007.

ليفـي ستراوس، كلود. (العرق والتاريخ)، ترجمة سليم حداد، المؤسسـة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة 2008.

ليكلرك، جيرار. سوسيولوجيا المثقفين. ترجمة جورج كتوراه، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى 2008.

المنوني، محمد. مظاهر يقظة المغرب الحديث. الجزء الأول، الطبعة الثانية، مطبعة المتوسط بيروت، لبنان. 1985.

المـوذن عبدالحـي، السبتي عبدالأحـد، كسيكس ادريس، أسئلة حول انطـلاق الربيع العربي، تقديم الطيب بـن الغازي، جامعة محمد الخامسـ أكدال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالربـاط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 49، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2011.

موران، ادغار. النهج. إنسانية البشرية، الهوية البشرية. ترجمة هناء صبحي، أبو ظبي، 2009.

موران، ادغار. إلى أين يسير العالم. ترجمة عبدالرحيم حزل، افريقيا الشرق، 2012.

الناصــري، أحمــد بن خالد. الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى. الدولة السعدية الجزء الخامس تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب الدار البيضاء، 1955.

نكــروف، يونــس. معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة. ترجمة وفاء موسى ويشــو، حسين حيدر. منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1978.

نيتز، روبرت. تاريخ الرقابة على المطبوعات. ترجمة فؤاد شاهين، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008.

هارتــوغ، فرانسوا. تدابــير التاريخانية -الحاضرية وتجارب الزمــان-. ترجمة بدر الدين عرودكي، المنظمــة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2010.

هورس، جوزيف. قيمة التاريخ، ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت، بباريس، بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية، الطبعة الثالثة، 1986.

هــيرودوت. تاريــخ هــيرودوت، ترجمة عبدالإله الملاح، مراجعــة أحمد السقاف وحمد بــن سراي، المجمع الثقــافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2001.

ولد اباه السيد. التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1994.

يانج، روبرت. أساطير بيضاء: كتابة التاريخ والغرب. ترجمة أحمد محمود، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2003.

مراجع أجنبية

Adam Sisman، An Honorable Englishman: The Life of Hugh Trevor-Roper، Random House، 2011.

Antoine Vitkine، Mein Kampf histoire d’un livre، Flammarion، 2009 ,

Bensa Alban et Fassin Eric. Les science sociale face à l’événement، terrain، numero38-Qu’est-ce Qu’un événement (mars 2002)، [En ligne]، mis en ligne le 06 mars 2007..

Bernard Lugan. Histoire du Maroc، Ellipses، 2011

CARBONELL CHARLE-OLIVER. L’HISTOIRE ET LES HISTORIENS. Une mutation idéologique des historiens français 18651885-. Edouard Privat. 1976. Toulouse.

Chaunu، Pierre. Pour l’histoire، Perrin.

Delacroix Christian. Ce que Ricœur fait des annales: méthodologie et épistémologie dans l’identité des annales. Paul Ricœur et les sciences humaines.

Dosse François، Renaissance de l’événement. Presses Universitaires de France - PUF ; Édition. 2010

Dosse François. Gilles Deleuze et Félix Guattari، biographie croisée، Paris. La découverte 2007.

Doug Munro، History as a Blood Sport- the Biography of Hugh Trevor-Roper، journal of Historical Biography 8 (Autumn 2010

Duby Georges. Le Dimanche de Bouvines.27 juillet 1214. Trente journées qui ont fait la France ; 5(Paris). Gallimard.1973.

Furet François. L’attelier de L’histoire، Éditions Flammarion، Paris، 1982،

Garcia، Patrick. Histoire du temps présent، parmi. Historiographies. I.Concepts et débats. Folio histoire. Editions. Gallimard، 2010.

http://www.history.ox.ac.uk/research/project/hugh-trevor-roper/bibliography.html

Hugh Trevor-Roper، Archbishop Laud 15631645-، (London: MacMillan، 1962-second edition(

Lacouture. Le Maroc à l’épreuve، en collaboration avec Simonne Lacuture، Le Seuil 1958

Michel abitbol. Histoire du Maroc، Editeur: Librairie Académique، Perrin.2009.

Miege، Jean louis. Le Maroc et l’Europe: 3 vol، Les difficultés، Paris، éditions La Porte، 1961.

Murat Laure. L’homme qui se prenait pour Napoléon: Pour une histoire politique de la folie. Editions Gallimard (22 septembre 2011).

Nora Pierre. Le retour de l’événement. Faire de l’histoire. Nouveaux problèmes. Sous le directeur de jacques le Goff et Pierre Nora. Gallimard.

Pierre vermern. Histoire récente، histoire immédiate، l’histographie française et le cas du Maghreb Parmi Tempe présent et fonctions de L’historien édité par: Mohammed Kenbib، université Mohamed V Agdal، Publications de la Faculté des Science Humaines-Rabat، série: Colloques et séminaires N158.2009.

Soulet، Jean- François. L’histoire immédiate historiographie ; sources et méthodes، Armand Colin، coll. (U. Histoire)، 2009.

نشهد حالياً خصوبة توليد الأحداث في زمن الإعلام المتنوع. إننا أمام ولادة رؤية جديدة؛ فهناك تحول بارز على مستوى مقاربة الحدث.

يشير هذا الكتاب إلى ما يحدث اليوم من عملية انتقال، في زمن هيمنة وسائل الإعلام في مقاربة الحدث، من الأسباب إلى التركيز على النتائج، التي يخلفها؛ أي أن المقاربة تحولت من قمة الحدث إلى قاعدته.

ثم ينوه إلى سطوع تاريخ الزمن الراهن وضغوطات الساسة والسياسة، إضافة إلى طفرة وسائل الإعلام وعودة الحدث وصناعته، مع عدم إغفال الثورات العربية وما واكبها من تطويع الأحداث المتسارعة.